الحضارة البيزنطية في ضوء المصادر الإسلامية

للقرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين

الحضارة البيزنطية في ضوء المصادر الإسلامية*

للقرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين

الحضارة بالنسبة للمسلمين فى العصور الوسطى وبتعبير ابن خلدون "هى تفنن فى الترف وإحكام الصنائع "، وبتعبير الحديثين هى رفاهة العيش (١). والحضارة الرومانية هى واحدة من أبرز الحضارات البشرية ، وقد حظيت هذه الحضارة باهتمام المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى ، لكونها إحدى الحضارات القديمة التى قامت على أكتافها الحضارة الإسلامية ؛ ذلك أن المسلمين عندما قاموا بفتوحاتهم في القرن الأول الهجرى / السابع الميلادي ، لم يكن لديهم تراث حضاري ملحوظ في ميادين العلوم المختلفة ، غير أنهم وجدوا فى البلاد التى فتحوها ، وكانت خاضعة للشق الشرقي من الإمبراطورية الرومانية (الدولة البيزنطية) ومن بينها بلاد الشام ومصر ، حضارة زاهرة استفادوا منها كثيرا في بناء نهضتهم الحضارية .

ولا يقلل ذلك أبدا من شأن الحضارة الإسلامية؛ لأن طبيعة التطور الحضاري للجنس البشرى تستلزم إفادة الخلف من جهود السلف، فمثلا، لم يقل أحد مطلقا أن إفادة اليونانيين القدماء من بعض عناصر حضارة قدماء المصريين قلل من شأن الحضارة اليونانية. كذلك لم يقل أحد إن إفادة الرومان من حضارة اليونانيين القدماء ينتقص من قدر الحضارة الرومانية، بل كانت أكبر خدمة قدمها الرومان للبشرية، أنهم تبنوا ثقافة اليونان وقالوا بها. وفضل الروم على البشرية أنهم حملوا هذه الثقافة وحموها في عصر الظلمات فحفظوها لنا في نصوصها الأصلية وأضافوا إليها (٢).

ولذلك لن نبالغ إذا قلنا إنه لا سبيل لفهم تاريخ العرب فهما كاملا إلا بالإطلاع على تاريخ هؤلاء الروم (٣). وهى حقيقة فطن إليها المؤرخون المسلمون ولذلك حرصوا على الاهتمام بتاريخهم وحضارتهم ، وكانوا يقصدون بهم أولئك الذين خرجوا من مدينة روما وأسسوا إمبراطورية شاسعة عرفت بالإمبراطورية الرومانية ، وهى الإمبراطورية التي ظلت قائمة إلى أن سقط الشق الغربي منها وعاصمته روما على أيدي الجرمان عام ٤٧٦م ، وحمل الشق الشرقي - بوصفه الوريث الشرعي وعاصمته القسطنطينية – عبأ مواجهة أعدائها وأبرزهم الفرس ، ثم المسلمين

على الجبهة الشرقية ، وظل محافظا على بقاءه إلى أن سقطت عاصمته في أيدي الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م .

وهنا تجدر الإشارة، أن ما ورد سواء في القرآن الكريم أو في السنة النبوية أو في المصادر الإسلامية هو لفظ الروم (٤)، وهو نفس اللفظ الذي كان يستخدمه أباطرة دولة الروم للتعريف بأنفسهم (٥) وكذلك أهالي مدينة القسطنطينية الذين كانوا يعدون أنفسهم رومانا بالجنسية، حتى بعد أن لم يعد أحد يسمع اللاتينية على ضفاف البسفور بزمن طويل (٦). أيضا استخدمت المصادر البيزنطية أيضا لفظ الرومان (الروم)(٧). ولذلك فاستخدام هذا المصطلح العربي أكثر سلامة من الناحية التاريخية.

ومع ذلك يفضل أغلب المؤرخين الحديثين استخدام اسم بيزنطة وبيزنطي (٨)، ويرجع ذلك - من وجهة نظر الباحث - إلى محاولة هؤلاء تبسيط الدراسة بعد ما وجدوه من سمات وخصائص ميزت الشق الشرقي من الإمبراطورية الرومانية عن شقها الغربي بعدما انفصل كلاهما عن الآخر من ناحية، ونسبة إلى مستوطنة بوزانطيا (بيزنطة) التي كان قد أقامها أهل ميجارا Migara على الجانب الأوربي من مضيق البسفور منتصف القرن السابع قبل الميلاد، ثم أقام الإمبراطور قسطنطين الأول Constantine I(٣٢٣-٣٣٧م) على أنقاضها مدينة روما الجديدة ، التى قدر لها أن تصبح وريثة لتراث الحضارة الإغريقية بل وللإمبراطورية الرومانية بعد زوالها فى الغرب ، وقامت بها حضارة متميزة عرفت بحضارة الروم أو الحضارة البيزنطية من ناحية أخرى (٩) .

ويبدو أن مثل هذا الأمر كان محل نقاش بين سكان القسطنطينية أنفسهم فى القرن الخامس عشر الميلادي، فحينما كانوا يتناقشون فى أمر حضارتهم وطبيعتها. كانوا يتساءلون هل نحن رومان (Romaioi)، أم هلينيون ؟ إلى أن أجابهم عن ذلك السؤال المواطن العظيم جورج سكولاريوس جناديوس George Scholarios Gennadios II (١٠) بقوله: " إنى وإن كنت هلينيا لغة ، إلا إني لا أستطيع أن أقول إنى كنت هلينيا ، وذلك لأن عقيدتي ليست عقيدة الهلينيين . وإني لأحب أن أشتق اسمي من عقيدتي، ولو سألني أي إنسان من أنت؟ لأجبته: مسيحي ... ومع أن أبي كان

يسكن تساليا فإني لأدعو نفسي تساليا بل بيزنطيا وذلك لأني من أهل بيزنطة "(١١). وبناء عليه سيستخدم الباحث في هذه الدراسة لفظ بيزنطة وبيزنطي أحيانا والإمبراطورية الشرقية والروم أحيانا أخرى على اعتبار أن هناك سند تاريخي للأمرين، وإن كان لفظ بيزنطة وبيزنطي هو الأكثر انتشارا في كتابات الحديثين لا سيما خلال القرنين الأخيرين.

وقد لفت نظر الباحث إلى هذه الدراسة، اهتمام المصادر الإسلامية بالحضارة البيزنطية أكثر من غيرها، وأن الجانب الحضاري للبيزنطيين ما يزال بحاجة للمزيد من الدراسات لإجلاء غموضه الناجم عن قلة المعلومات بالمصادر البيزنطية، التي قصرت جل اهتمامها على الجانب السياسي أكثر من غيره، وبالتالي فالرجوع إلى مصادر غير بيزنطية يكمل هذا الجانب من ناحية، ويظهره من وجهة نظر مختلفة من ناحية أخرى (١٢) . أيضا أن هذا الموضوع لا يوجد - على حد علم الباحث - بالمكتبة العربية بحث مستقل يعالجه باستفاضة.

بيد أن المشكلة التي واجهت الباحث هي أن المصادر الإسلامية عند تأريخها للجانب الحضاري للروم لم تذكر - إلا في القليل النادر - تواريخ محددة لما أوردته من معلومات ، وحتى هذه المعلومات جاءت مقتضبة وتؤرخ بالجملة ، وهو أمر تعذر معه تحديد فترة زمنية بعينها من تاريخ بيزنطة الحضاري لتناولها بالبحث والدراسة ، وعوضا عن ذلك تم في عنوان البحث تحديد الفترة التي اعتمد على مصادرها في إعداد هذه الدراسة وهى مصادر القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين ، ومرد ذلك إلى أن معلومات مصادر هذين القرنين عن الحضارة البيزنطية أغزر وأكثر وضوحا عن غيرها من مصادر القرون الأخرى ؛ لأن الكتابة التاريخية لدى المسلمين كانت قد تطورت بعض الشيء، ولا عجب فى ذلك ؛ فالحضارة الإسلامية بلغت ذروتها في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وفى وقت كانت الحضارة البيزنطية قد تبلورت هي الأخرى ، بعدما بلغت بيزنطة أوج مجدها السياسي في عصر الأسرة المقدونية (٨٦٧ - ١٠٥٦م) أو ما يعرف بالعصر الذهبي .

لكن رغم غزارة المعلومات، فقد انصب أغلبها على جوانب حضارية دون أخرى، ولعل ذلك يرجع - من وجهة نظر الباحث - إلى أن جل الكتابة التاريخية لدى المسلمين - رغم تطورها - لم يقم بها إلا إخباري أو رحالة أو جغرافي، وكتب هؤلاء فقط ما سمعوه أو شاهدوه، ولم يحظ ما دون ذلك باهتمامهم، ولذلك جاء ما كتبوه - على سبيل المثال - عن التعليم والإدارة والقضاء ... وغيره ضئيلا للغاية ولم يشف غليل الباحث.

على أي حال، لقد قر في ذهن الرومان أنهم الأمة الوحيدة في هذا العالم، وأن ما عداهم من الشعوب يجب أن يكون في خدمة الإمبراطورية، خاضعين لسيادتها أو دائرين في فلكها، قانعين بسيادة الملوك Basilicus، باعتبارهم أفصالا ورعايا لهم. ولم يكن ذلك غريبا على جوهر الفكر السياسي الروماني، الذي يؤمن أن حضارته تجمع أرقى ثلاثة عناصر، التراث الروماني بأحسن ما قدمه في القانون والإدارة والهللينية بأروع ما أبدعته في اللغة والأدب والفلسفة، والمسيحية بكل ما حملته من مبادئ، ومن ثم أعتقد البيزنطيون أن إمبراطوريتهم في جوهرها الحضاري تمثل " العالمية Oikoumene يجلس على عرشها إمبراطور يعد السيد الشرعي الوحيد والقانون الحي آنذاك(١٣).

تلك هي نظرة الرومان لأنفسهم، فماذا عن نظرة غيرهم، وبخاصة المسلمين، إليهم؟ ستتضح هذه النظرة - ووفقا للمادة الموجودة بالمصادر التي توفرت للباحث - من خلال مناقشته لعدة محاور: **الأول**، الناحية الاجتماعية، ويتم الحديث فيها عن أصل الروم، والمرأة البيزنطية، والعدالة البيزنطية. **الثاني**، الناحية السياسية، وتتم الإشارة فيه إلى أباطرة بيزنطة وألقابهم ومراسم استقبالهم للسفراء وبعض وسائل تعاملهم مع الآخر، وكذلك معاملتهم لأسرى المسلمين، إلى غير ذلك من النقاط التى تلقى الضوء على الأمور السياسية التى شكلت جانبا مهما من جوانب الحضارة البيزنطية. **الثالث**، الناحية الدينية، وتمت الإشارة فيها إلى انتشار المسيحية والألقاب الدينية والعلاقة بين السلطتين الدينية والدنيوية. **الرابع**، الناحية الثقافية (العلوم والفنون) ويشمل علوم كالفلسفة والطب والكيمياء، وبراعة البيزنطيين فى النحت والرسم أو ما يعرف بالفن

البيزنطي. **الخامس** والأخير، هو الناحية الاقتصادية، والأنشطة التى مارسها البيزنطيون من زراعة وصناعة، وكلها محاور شكلت جوهر الفكر العربي والإسلامي فى العصور الوسطى ونظرته للآخر، وهي نظرة كان ملؤها الإعجاب في بعض الأحيان والعجب والازدراء فى بعض الأحيان الأخرى.

كانت بلاد الروم يحدها من الجنوب البحر الرومي (البحر المتوسط)،والشام والإسكندرية ومن الشمال والشرق ممالك الأمم الشمالية من الترك والخزر والروس ، ومن الغرب الأندلس وطنجة والبحر الغربي الأعظم المعروف باوقيانس (المحيط الأطلسى) (١٤) ، وكان الروم أمة ضخمة فخمة الملوك (١٥) ، أخذوا اسمهم من اسم مدينة روما واسمها روماس بالرومية وعرّب هذا الاسم فسمى من كان بها روما ، وكذلك الروم في لغتها لا يسمون أنفسهم إلا رومينس ، كما يدعوهم بنفس المسمى أيضا أهل الثغور (١٦) ، الذين اعتادوا الإشارة بهذا الاسم أيضا إلى البيزنطيين (١٧) . وقد ذكر المسعودي تفسير آخر لأسم الروم ذكره المؤرخ المسعودي عند ما أورد شجرتى نسب هؤلاء الروم ـ وفقا للأسلوب الذي اعتاد العرب علي إتباعه عند رسمهم شجرة أنساب القبائل العربية ـ وعاد بهذا الاسم إلى أحد أجداد الروم الأوائل، ودمج ـ مع كتاب آخرين ـ الروم ضمن المزيج العرقي الذي ورد فى الفصل العاشر من سفر التكوين ، والذي تناول بالذكر أبناء نوح الثلاثة وهم : سام ، حام ، ويافث الذين تشعبت منهم كل أمم الأرض (١٨) .

ومع ذلك فى الوقت الذي يتفق فيه البعض على أن العرب هم من سلالة سام، فإنهم يختلفون حول نسب الروم ، فبعضهم ينسبونهم إلى سلالة يافث ، وبالتالي يندرجون ضمن سلالة السلاف Slavs والترك Turks ، وبعضهم الآخر ينسبونهم كالعرب إلى سلالة سام (١٩)، كما لقبهم البعض بـ "بنو الأصفر"(٢٠)، مما يعنى أن الأمر موضع خلاف بين الكتاب المسلمين ، سواء من ناحية أصل الروم أو بعض الأسماء التي لقبوا بها ، ولا يوجد رأى قاطع في هذا الشأن .

وكانت قاعدة مملكة الروم مدينة رومية العظمى (المقصود روما) التى بناها أول ملك مشهور من ملوك الروم ونسبت إليه وهو روملش اللاتينى ، وظلت مملكة

الروم مستقلة عن مملكة اليونانيين إلى أن قام أغسطس قيصر بضمهما فى مملكة واحدة أصبحت تمتد حدودها من تخوم أرمينية شرقا إلى بلاد الأندلس غربا وعاصمتها رومية العظمى ، حتى قام قسطنطين ابن هيلاني ببناء القسطنطينية (فى القرن الرابع الميلادى) لتصبح قاعدة لملك الروم (الإمبراطور البيزنطي) وخلفاءه من بعده (٢١). وكان هو أول من انتقل إليها من ملوك الروم، ثم فارق عبادة الأصنام ودان بالنصرانية، وذلك فى أول سنة من ملكه (٣٢٣م) ولسبع سنين من ملكه (٣٣٠م) (٢٢)؛ ذلك أن اسم قسطنطين الأول ارتبط في التاريخ بخطوتين مهمتين هما: اعترافه رسميا بالديانة المسيحية وتشييده لروما الجديدة (القسطنطينية) على ضفاف البسفور واتخاذها عاصمة للإمبراطورية الرومانية (٢٣).

ولا ريب فى الأهمية التاريخية لمدينة القسطنطينية، ذلك أن تأسيسها كان رمزا لقيام الإمبراطورية الرومانية الشرقية واعتناقها المسيحية، صحيح أن السمات المميزة للإمبراطورية الشرقية استغرقت قرونا لتظهر واضحة جلية، إلا أن هذه العاصمة أصبحت منذ نشأتها مركزا رئيسا للشئون السياسية والإدارية والتجمع السكاني، فضلا عن كونها مركزا للحياتين الاقتصادية والدينية في الإمبراطورية البيزنطية. أيضا كانت القسطنطينية مركزا للآداب والفنون إلى جانب كونها معقلا للمسيحية الأرثوذكسية ووريثة للحضارة اليونانية الرومانية. وقد ظلت القسطنطينية محتفظة بأهميتها السياسية والاقتصادية والثقافية طوال العصور الوسطى، وتردد ذكرها في كل المصادر البيزنطية لارتباطها الوثيق بالسلطة الإمبراطورية ومضاهاتها روما فضلا عن موقعها الجغرافي المتميز ومناخها المعتدل وعمارتها الأنيقة ودورها الذي لعبته كمركز للفنون والآداب. وقد ورد ذكرها بمسميات مختلفة منها: أورشليم الجديدة، روما الجديدة، مدينة العذراء، ملكة المدن(٢٤).

ومع ذلك لم تحظ من المؤرخين المسلمين بالاهتمام الذى تستحقه ، فاكتفى المسعودى بمناقشة اسمها بقوله : " أن الروم كانوا يسمونها بُولِن وإذا أرادوا أن يعبروا عن أنها دار الملك لعظمها كانوا يسمونها استن بُولِن ولا يدعونها القسطنطينية وإنما العرب هم الذين اختاروا لها هذا الاسم " (٢٥) ، وذهب صاعد الأندلسى إلى أن

مدينة روما ظلت عاصمة للإمبراطورية الرومانية بشقيها الشرقي والغربي حتى عام ٣٣٥م ، عندما قام قسطنطين ابن هيلاني ببناء مدينة على الخليج (يقصد البسفور) وهى المنسوبة إليه والمعروفة بالقسطنطينية في وسط بلاد اليونانيين واستوطنها فصارت من حينئذ قاعدة ملك الروم وخلفائه من بعده . وظلت مملكة الروم تنعم بالاستقرار إلى أن خرجت عليها الأمم التى كانت تابعة لها لاسيما من الصقالبة والبرجان وغيرهم وكان آخر من خرج عليها ملك رومية (الألمان حينما استولوا على إيطاليا عام ٣٤٠/ ٩٥١م) ولما فشلت الجيوش البيزنطية فى مواجهته دخلوا فى صلح معه ومنذ ذلك الوقت اتسعت الهوة بين المملكتين اللاتينية والإغريقية ولم يعد أحدا يستطيع الوصول من القسطنطينية إلى روما إلا عن طريق البحر (٢٦). أما ابن الفقيه فقد ذهب فى نقاشه إلى أن القسطنطينية شمتت بخراب بيت المقدس فتجبرت واستكبرت وعرفت بالمستكبرة وقالت " إن كان عرش ربي جل جلاله على الماء فقد بنيت على الماء فوعدها الله العذاب قبل يوم القيامة فقال الله وعزتي وجلالي لأنزعن حنيك وحريرك وخمرك وخمبرك ولأتركنك لا يصيح فيك ديك ولا أجعل لك عامرا إلا الثعالب ....) (٢٧) . ولم يذكر أحد من المؤرخين شيئا عن عمارتها، باستثناء أنه كان فيها نحو أربعون ألف حمام (٢٨).

أما عن عناصر السكان فى الدولة البيزنطية ، فإذا قارنا ما كتبه المؤرخ البيزنطي جنسيوس Genesius في القرن العاشر الميلادي عند حديثه عن العناصر التي قادها عام ٨٢٢م الثائر توماس السلافى Thomas The slave(٨٢٠-٨٢٣م) ضد الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثاني Michael II(٨٢٠ - ٨٢٩م) (٢٩) ، بما ذكرته المصادر الإسلامية ، من أن عناصر مثل الروس Russ والأرمن Armenians والبلغار Bulgars والصقالبة (السلاف) والبشناق الأتراك Betcheneges، والفرنجة Franks، دخلت في تشكيل الروم (الإمبراطورية البيزنطية) وأن هذه العناصر - رغم تحدثها لغات مختلفة - كانت تدين بدين واحد وتعيش في بلد واحد ، كما هو الحال في دولة الإسلام ؛ لاتضح أن الكتاب المسلمين كانوا على دراية تامة بالمزيج العرقي الذي شكل الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى ، وبعدم وجود أي تجانس بين هذه العناصر (٣٠) لكن باستثناء ما

قيل أنه : " كانت لهم صباحة وشقرة ونظافة "(٣١) ، تظل المعلومات عن صفات هذه العناصر فى المصادر الإسلامية شبه نادرة .

إلا أن المؤرخين المسلمين كانوا على معرفة كبيرة بالعادات والتقاليد السائدة فى المجتمع البيزنطي وخاصة الذي يتعارض منها مع تعاليم الإسلام وطبيعة المجتمع الإسلامي، ويبدو ذلك جليا من خلال ما كتبوه عن المرأة البيزنطية وما ارتبط بها من عادات فى مجتمعها، فكان من عادة البيزنطيين لا تحتجب نساؤهم عن الرجال، وكانت زوجة الإمبراطور نفسها تركب في الموكب الإمبراطوري مكشوفة الوجه وتخاطب الناس وتأمرهم وتنهاهم وجها لوجه. وكان من عادتهم أيضا ألا يحل للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة واحدة ولا يفرق بينهما طلاق ولا هرم ولا عيب من العيوب ولا يحل له غيرها إلى أن تموت (٣٢). وكان للرجل الحق، عندما يرغب الزواج، فى أن يقلّب المرأة ويستقصى تفتيشها فإن صلحت له تزوجها، وإن لم تصلح تركها (٣٣) . والأغرب من ذلك، أنهم كانوا يستبيحون الزنا حتى بعد اعتناقهم المسيحية لتأصل هذا الأمر فيهم، وكان من حق المرأة التى لم تتزوج أن تزني وهى ما تزال في بيت أبيها ، بل وكان لها أن تمتهن الزنا ، وحدد القضاة أجرها الذى يجب أن تتقاضاه ، ولذلك كانت هناك أسواق ودكاكين كثيرة للبغاء ، تجلس أمام أبوابها النساء متزينة عارية ليراها الناس وكان ذلك أمرا لا عيب فيه (٣٤). وحتى النساء الراهبات أيضا كن يطفن على العزّاب والرهبان، ويخرجن إلى الحصون والقلاع التي فيها الجنود العزاب يبيحون لهن أنفسهن، ولكن ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، وكانت تُشكر على ذلك ويقال لها لن ينسى لك المسيح هذه الرأفة والرحمة (٣٥) .

وفى ظل هذا العرف السائد وجدنا على الجانب الآخر، المتزوجين من الرجال يتخذون الخليلات، بل هناك أحد الشمامسة - وهو رجل دين - هجر زوجته واعتاد معاشرة جاريته (٣٦). وكان من حق المرأة المتزوجة هي الأخرى أن تتخذ صديقا لها عند غياب زوجها لفترة طويلة، يؤكد ذلك ما رواه أحد أسرى المسلمين ممن أقاموا في القسطنطينية لفترة طويلة من الزمن واضطر هو ورفاقه إلى التظاهر باعتناق النصرانية تقية، وتزوج هو من امرأة، اتخذت بعد سفره صديقا لحين عودته(٣٧) .

أما عن أطفال البغاء، فكانت الأم تحمل ابنها إلى رجال الدين قائلة " وهبت هذا للمسيح ليكون خادما له " فيردون عليها قائلين " قديسة طاهرة مباركة ، هنيئا لك رضى المسيح وثوابه" ويدعون الناس لها ويهنئوها بالثواب (٣٨) .

من ناحية أخرى كان البيزنطيون يأبون الختان ، ويخصون الأطفال ، وكان تزويج الأختين من الأخوين مباحا إلى أن حدثت عداوة بين أختين أدت إلى عداوة الأخوين فاجتمعوا وحرموا ذلك (٣٩).وكانت المرأة ترث ضعف الرجل (٤٠) على عكس شريعة المسلمين . ولذلك لا غرابة فى أن يصف المسلمون شريعة البيزنطيين بالجائرة لأنها من سن البشر، أما الشريعة الإسلامية من وحي السماء والسنة النبوية المطهرة (٤١).

ورغم هذا الجور، أسهب المؤرخون المسلمون وامتدحوا حرص الإمبراطور البيزنطي على تطبيق العدل بين أفراد المجتمع، ويؤكد ذلك، المشهد الذي صوره الجغرافي ابن رسته عن موكب الإمبراطور البيزنطي بداية من باب القصر الإمبراطوري إلى أن يصل الكنيسة العامة في وسط العاصمة "... حتى ينتهي إلى باب الكنيسة (يقصد الإمبراطور) فيقدم الرجل الطشت والإبريق فيغسل الملك يده ويقول لوزيره إني برئ من دماء الناس كلهم؛ لأن الله لن يسألني عن دمائهم، وقد جعلتها في رقبتك. ويخلع ثيابه التى عليه على وزيره ويأخذ دواة بلاطس، وهي دواة الرجل الذي تبرأ من دم المسيح، ويجعلها في رقبة ذلك الوزير ويقول له " دن بالحق كما دان بلاطس بالحق "ويدور به على أسواق القسطنطينية فينادون به دن بالحق كما قلدك الملك أمور الناس" (٤٢). يذكر أيضا ابن الفراء على لسان الفضل بن مروان وزير المعتصم أنه: " كانت الرسل من جهة الملوك إذا جاءت بالهدايا جعل اختلافهم إليّ فتكون المؤامرات فيما يجرى معهم من ديواني، فكنت أسأل الرسل عن سيرة ملوكهم وأخبار عظمائهم، فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكه، فقال: بذل عرفه، وجرد سيفه، فاجتمعت عليه القلوب مقة ورغبة. لا يعسف جنده، ولا يحرج رعيته. سهل النوال، حزن النكال، الرجاء والخوف معقودان في يده. قلت: فكيف حكمه؟ قال

يرد الظلم ويردع الظالم، ويعطى كل ذى حق حقه، فالرعية اثنان: راض ومغتبط. قلت: فكيف هيبتهم له؟ قال: يتصور في القلوب، فتغضى له العيون " (٤٣).

وهكذا كان الإمبراطور البيزنطي يحرص دائما على إظهار العدل والإنصاف بين رعيته (٤٤). وكانت الصفات التي ذكرها السفير البيزنطي موضع تقدير من المسلمين، وأبهرت الخليفة العباسي حتى أنه شك في أن يكون هناك من أثنى على الخلفاء المسلمين بمثل هذه الصفات (٤٥)، بل وبلغ الأمر أن بعض الخلفاء كانوا يتفاخرون أحيانا بنسبهم إلى قياصرة الروم (٤٦) .

وكان قد حكم الروم على مر تاريخهم عدد كبير من الأباطرة ، بلغ عددهم نحو ثماني وسبعون ملكا من الصابئين والمتنصرة ، ومدة سنيهم إلى عصر قسطنطين الأول نحو تسع مائة وست وستون سنة وشهر، وقد قسمهم المؤرخ المسعودي إلى ثلاث طبقات وجعل ملوك الطبقة الأولى نحو أربعون ملكا وكان أولهم برومية غائيوس قيصر ـ حكم ست وخمسين سنة ـ وقيل هم من أوغسطس إلى قسطنطين ابن هيلانى تسعة وعشرون ملكا ، أما ملوك الطبقة الثانية فهم المتنصرة وأولهم قسطنطين ويعرف بأمه هيلانى وأخر ملوك هذه الطبقة هو فوقاس Phocas الذي حكم ثماني سنين وأربعة أشهر(٦٠٢-٦١٠م) ، ثم ملوك الطبقة الثالثة من بداية الهجرة إلى عام ٣٤٥هـ /٩٥٦م وكان أول ملوكها هرقل Heraclius(٦١٠-٦٤١م)(٤٧). أما الأصفهاني فيذكر أن ملوك الروم بعد الإسكندر المقدوني Alexander The Macdonian إلى عام الهجرة، كان عددهم ثمان وخمسون ملكا؛ لأن الهجرة كانت في السنة التاسعة من ملك هرقل (٤٨).

وقد تمتع هؤلاء الملوك بالعديد من الألقاب، ويأتى فى مقدمتها اللقب الإمبراطوري بسيليوس Basilius وهو قيصر ملك الروم (٤٩)، ذلك اللقب الذي كان صاحبه يقف على رأس الهرم السياسى والعسكرى فى الإمبراطورية البيزنطية، ولأهميته تعددت صيغه أكثر من غيره من الألقاب الأخرى، لم لا؟ والإمبراطور البيزنطي كان يمثل في الفكر السياسي الروماني نائب المسيح " Vicarius Christi"على الأرض (٥٠)، ومن هنا استمد هيبته في قلوب رعاياه، وأضفت عليه

المصادر الإسلامية ألقابا ونعوتا مختلفة، من بينها لقب قيصر(٥١)، ومتملك الروم، وعظيم الروم (٥٢)، والملك الرحيم (٥٣). كما لقبت الأباطرة أيضا بالقياصرة والهراقل (٥٤)، وبرؤساء الروم (٥٥)، لكن كان اللقب الأكثر انتشارا هو ملك الروم (٥٦).

غير أن هذه الألقاب والنعوت كانت تتغير في المصادر الإسلامية بتغير الظروف، ويتضح ذلك من الألقاب والنعوت السيئة التى وصم المؤرخون المسلمون بها الإمبراطورالبيزنطي منها: طاغية الروم،وطاغية القسطنطينية(٥٧) وكلب الروم (٥٨) . وكان ذلك إهانة له وتقليل من شأنه، لكن لم يحدث ذلك غالبا إلا عندما كانت تتوتر العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين.

أما عن ألقاب أعوان الإمبراطور وقادته ومن دونهم ،فيأتي في مقدمتهم اللغثيث Logothete وهو وزير الإمبراطور وترجمانه ثم البركمومنس Paracoemomenus حاجب الحجاب ثم الدمستق Domesticus صاحب الجيش ثم أكسيوطس وهو ثقة الملك في الجيش ونظير الدمستق ثم أرخُن بترخُن رئيس البطارقة ثم البطريقيس وهو البطريق Patricus، والبطارقة هم أعظم قادة الجيش، وكان البطريق الواحد يقود عشرة آلاف رجل ، وكان عدد البطارقة نحو اثنا عشر بطريقا ستة منهم مع الطاغية (الإمبراطور) والباقى فى كور المملكة ، ثم نصف البطريق ويلقب بالطرخان وتحت إمرته خمسة آلاف رجل ، ثم اكسيرخس Exarch الذى يقود ألف رجل ثم القومي على مائتى رجل ثم القطنطارس قائد مائة رجل ثم القنطرخ على أربعين رجلا ، وأدناها لقب ديقرخس قائد عشر رجال (٥٩) .

ولكي يمارس الإمبراطور البيزنطي مهام منصبه المتنوعة، كان لابد أن يتقيد بقواعد البرتوكول، ومنها - على سبيل المثال - الزي أو الرداء الذي كان يرتديه ويختلف من مناسبة إلى أخرى (٦٠). ففى العيد - مثلا - كان الإمبراطور يرتدى وبمشقة ثوبا ثقيلا لا يقدر على حمله ولا الجلوس فيه لثقله، ففيه نحو ثلاثين ألف حبة لؤلؤ كل واحدة تزن نحو مثقال واحد. أما في السفر فكان يرتدي ثيابا مختلفة الأشكال ومكللة بالجوهر والدر من كل الأنواع، قيمة الثوب منها نحو مائتا ألف دينار (٦١).

وكان للون الزي الإمبراطوري دور كبير في الدعاية الإمبراطورية أيضا، وكان اللونان الأرجواني والذهبي من الألوان المفضلة لدى الأباطرة، فهما يرمزان للحياة والسلطة، وللقداسة والقوة في الرسميات البيزنطية (٦٢). ومع ذلك كانوا يرتدون أيضا زيا باللون الأحمر: " وكل شيء في مجلسه أحمر وما حوله حمرة وعليه ثياب من الحمرة "(٦٣)، كما كان الإمبراطور يرتدى خفين أحمرين، وكان يرتدي من دونه - ولى العهد - فردا أحمر وفردا أسود (٦٤).

وقد اختلف أيضا تاج الإمبراطور من مناسبة إلى أخرى، فهناك التاج الأكبر وهو من الذهب المكلل بأنواع اليواقيت والجواهر ويعلق في القصر الإمبراطوري فوق رأس الإمبراطور حيث يستقبل أهل مملكته ورسل وسفراء الملوك. وهناك تاج آخر يجعله الإمبراطور على رأسه إذا عاد منتصرا من أرض المعركة وهو مرصع بالجوهر له عرف خارج على وجهه من قطع الياقوت الأحمر(٦٥) .

وتبدو صورة أباطرة بيزنطة أكثر وضوحا في المصادر الإسلامية عند حديثها عن الدور الذي يقوم به هؤلاء الأباطرة سواء في قيادة الجيوش أو عند استقبال سفراء الخلافة الإسلامية وتبادل الهدايا أو عقد المعاهدات، لاسيما وأن وضع الخليفة ودوره السياسي كان يتشابه - إلى حد كبير - مع دور الإمبراطور البيزنطي (٦٦)، لذلك أسهبت المصادر الإسلامية عند وصفها للموكب الإمبراطوري والمراسم البيزنطية، ربما لاندهاش كتابها وانبهارهم بهذه المواكب وتلك المراسم.

فيذكر ابن رسته وبدون تاريخ معين، على لسان هارون بن يحيى وكان قد سبى ونقل بحرا من عسقلان إلى مدينة القسطنطينية وشاهد في العاصمة البيزنطية موكب ديني مهيب للإمبراطور البيزنطي، مما أدهشه وجعله يسهب في ذكر تفاصيله؛ لأنه أمر لم يكن له نظير في مراسم الخلافة العباسية آنذاك. حيث كان الإمبراطور يأمر في هذا الموكب أن يُفرش الطريق من باب القصر الإمبراطوري إلى الكنيسة العامة في وسط المدينة بالحصر (السجاد) وتنثر فوق هذه الحصر الرياحين والنباتات الخضراء ،وتزين الحوائط على الجانبين بامتداد الطريق بالديباج ثم يخرج بين يديه عشر آلاف شيخ عليهم ديباج أحمر ، مسبلة شعورهم إلى أكتافهم ثم يجئ خلفهم عشر آلاف شاب

عليهم ديباج أبيض مشاة كلهم ثم يجئ عشرة آلاف غلام عليهم ديباج أبيض أخضر ثم يجئ عشرة آلاف خادم عليهم ديباج لون السماء في أيديهم الطبرزينات (الفؤوس) المطلية بالذهب ، ثم يجئ بعدهم خمسة آلاف خصى أواسط عليهم ملحم خراساني أبيض بأيديهم صلبان ذهب ثم يجئ بعدهم عشرة آلاف غلام أتراك وخزر عليهم صُدّر مسيرة بأيديهم رماح وأترسه مطلية كلها ذهبا (٦٧) ، ثم يجئ مائة بطريق من الكبار عليهم ثياب الديباج الملون بأيديهم مجامر من ذهب يبخرون بها ، ثم يجئ اثنا عشر بطريقا من رؤساء البطارقة عليهم ثياب منسوجة من الذهب في يد كل واحد منهم قضيب من ذهب ثم يجئ مائة غلام عليهم ثياب مرصعة باللؤلؤ يحملون تابوتا من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته ثم يجئ رجل شيخ وبيده طشت وإبريق من ذهب مرصعان بالدر والياقوت ثم يقبل الملك وعليه ثياب الأسكيمو وهى ثياب من إبرسيم منسوج بالجوهر وعلى رأسه تاج وعليه خفان أحدهما أسود والآخر أحمر وخلفه الوزير وبيد الملك حُق من ذهب فيه تراب وهو راجل كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانهم ما تفسيره اذكروا الموت ، فإذا قال له ذلك وقف الملك وفتح الحق ونظر إلى التراب وقبله وبكى فيسير كذلك حتى ينتهي إلى باب الكنيسة ..... وهناك يأمر بإدخال أسارى المسلمين الكنيسة فينظرون إلى تلك الزينة والملك فيصيحون أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة ثلاث مرات ثم يؤمر فيخلع عليهم، ويساق خلفه ثلاث جنائب شهب عليها سروج ذهب مرصعة بالدر والياقوت وجلال ديباج مرصعة أيضا بمثل ذلك لا يركبها فيدخلونها إلى الكنيسة ولها لجام معلق يقولون إنه متى أخذت الدابة اللجام في فمها انتصرنا على المسلمين (٦٨). وبمقارنة ما ذكره هارون بن يحيى مع ما ذكره الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع في كتابه عن المراسم البيزنطية، يتضح أن هناك تشابها كبيرا في المعلومات لدى الاثنين عن المراسم البيزنطية (٦٩) . وتوضح هذه المراسم وغيرها مدى ثروة الإمبراطورية وقوة السلطة التى كان يتمتع بها الإمبراطور البيزنطي ومدى هيبته وإجلاله فى قلوب رعاياه آنذاك.

من ناحية أخرى كان من بين المراسم البيزنطية لقاء الإمبراطور البيزنطي بأسرى المسلمين بعد خروجه من الكنيسة يوم عيد الميلاد حيث يتجه إلى مجلسه

ليجلس في صدارته على مائدة من ذهب ثم يأمر بإحضار أسرى المسلمين ليجلسوا أمامه على موائد أخرى قريبة منه ، ثم يتم إحضار أربعة موائد أخرى (٧٠)، توضع بين يديه ولا يأكل عليها مادام الإمبراطور على مائدته ، فإذا قام رفعت مائدته ، ثم يؤتى بالأسرى المسلمين وعلى تلك الموائد من الحار والبارد أمر عظيم ثم ينادى منادي الملك ويقسم أن هذه الأطعمة ليس بها شئ من لحم الخنزير ثم تنقل إليهم تلك الأطعمة فى صحاف من الذهب والفضة ليأكلوا منها على صوت من يقومون بالغناء والثناء على الإمبراطور ويظل الأسرى على هذا الحال أثنى عشر يوما ، وفى آخرها يأخذ كل أسير دينارين وثلاثة دراهم (٧١).

إلى جانب ذلك كان الإمبراطور البيزنطي يسمح لسفراء المسلمين بزيارة أسرى المسلمين، يتضح ذلك مما جاء في سيرة الخليفة العباسي المأمون، حينما أرسل رسولا إلى الإمبراطور البيزنطي يحمل بعض الكتب، وهناك طلب هذا الرسول زيارة الأسرى المسلمين، فأذن الإمبراطور له فدخل إليهم وسألهم عن أخبارهم، وعندما أراد الخروج قام إليه أسير من أهل بغداد وأنشده أبياتا وسأله أن ينشدها المأمون (٧٢).

لكن ربما كانت المعاملة الطيبة وزيارة الأسرى ، قاصرة على الوجوه والأشراف من أسرى المسلمين ، ممن كانوا فى الدار التى بناها الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى leo III (٧١١- ٧٤١م) فى مواجهة قصره بالعاصمة ؛ ذلك أن مسلمة بن عبد الملك (٧٣) عندما غزا بلاد الروم ودخل هذا المصر (عند حصاره للقسطنطينية عام ٩٨-٩٩هـ/٧١٧-٧١٨م) اشترط على كلب الروم (الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الأيسورى) كي يرفع الحصار عن عاصمته ، بناء دار مقابل قصره بالميدان بالعاصمة البيزنطية ينزلها الوجوه والأشراف من المسلمين إذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده ، فوافق الإمبراطور وبنى هذه الدار (٧٤) وألحق بها مسجدا أيضا بناء على طلب مسلمة ، وهو المسجد الذى حمل اسم مسلمة بن عبد الملك (٧٥).

أما بقية الأسرى من عامة المسلمين فكانوا يعانون الأمرين في أسرهم، حيث كانوا يقيدون بالسلاسل الحديدية في أقدامهم، ويتم ترحيلهم من سجن إلى سجن ومن بلد إلى آخر إمعانا في تعذيبهم (٧٦) . كما كانوا يستعبدون ويستعملون في الصنائع،

وكان الحازم منهم من ينكر صنعته إذا سئل عنها، ومع أن البيزنطيين كانوا لا يُكرهون أحدا منهم على أكل لحم الخنزير ولا يثقبون له أنفا أو يشقون له لسانا، إلا أنهم كانوا يقيمون سباقا للخيل بين حزبين احدهما للملك، فإن سبقت خيل حزبه صاحوا ستكون الغلبة للروم وإن كانت الأخرى قالوا ستكون الغلبة للمسلمين فيعذبون هؤلاء الأسرى لكون الغلبة ستكون لقومهم (٧٧) .

وكان للإمبراطور البيزنطي أربعة حبوس (سجون) دون دار البلاط، يحبس فيها الأسرى فى رساتيق لهم. فاحدها يعرف بالطرقسيس ، والآخر بالابسيق ، والثالث بالبقلار ، والرابع بالنومره ، وكان الطرقسيس والابسيق أرفههما ؛ لأنهما لا قيود فيهما ، وكان البقلار والنومره ضيقان ومن حبس فى دار البلاط فبالنومره ابتدأ حبسه وهو حبس ضيق مؤلم مظلم (٧٨) وهكذا اختلفت معاملة الأسرى المسلمين فى السجون البيزنطية باختلاف الزمان والمكان، وكانت رهنا بعلاقة المسلمين بالدولة البيزنطية وبقوتهم وضعفهم فى صراعهم معها.

على أي حال، كان البلاط الإمبراطوري يحرص وبشدة على إظهار هيبة الإمبراطورية وبخاصة عند استقبال الإمبراطور للسفراء الأجانب، ولذلك اختلفت مراسم الاستقبال فى القصر الإمبراطوري من سفارة إلى أخرى، وهناك روايات مختلفة فى المصادر الإسلامية توضح هذا الأمر.

ها هو عبادة بن الصامت (٧٩)، وكان قد أرسله الخليفة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣/ ٦٣٤- ٦٤٤م) إلى ملك الروم (هرقل) بالعاصمة البيزنطية يدعوه إلى الإسلام يروى ما حدث معه هو ورفاقه وكانوا قد اقتربوا "...من المدينة (يقصد القسطنطينية) قيل لنا إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال قلنا والله لا ندخل إلا عليها فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون، فأرسل أن خلوا عنهم. فدخلنا عليه معتمين السيوف على الرواحل .... وهو على فراش له وعنده بطارقته من الروم." (٨٠). وكانت هذه حالة استثنائية أجبر عليها الإمبراطور بعدما وجد إصرار السفراء على ذلك وإلا عادوا دون مقابلته (٨١)، فى وقت كان المسلمون فيه قد أخذوا يقتطعون أجزاء من الأراضي البيزنطية يوما بعد الآخر.

هناك مشهد آخر يرويه عمارة بن حمزة ،.وكان قد أرسله أحد الخلفاء (الأرجح أنه الخليفة العباسي المنصور(١٣٧-١٥٩هـ/٧٥٤- ٧٧٥م) إلى الإمبراطور البيزنطي (الأرجح أنه قسطنطين الخامس Costantine V ٧٤١-٧٧٥م)، والذي تعتبر روايته من أدق الروايات عن مراسم الاستقبال البيزنطية التي شهدها بنفسه، فلكي يلتقي بالإمبراطور يقول : " فانتهيت إلى مكان يحجب منه الرجل على مسافة بعيدة فجلست حتى أتى الأذن فسرت إلى مكان آخر فجلست حتى الأذن ثلاث مرات ثم وصلت إلى داره فأدخلت دارا وإذا على طريقي أسدان ...فقلت لابد من الموت ... فلما صرت بينهما سكنا فجزت ، ودخلت دارا أخرى وإذا سيفان يختلفان على طريقى ... لو مر بينهما ذبابة لقطعاها ... فلما صرت بينهما سكنا ..... فلما وصلت إلى بهوه إذا هو في بهو فسيح أكاد أن لا أبصره لبعد مسافة البصر بيني وبينه فمشيت حتى انتهيت إلى قدر ثلثه فغشيتنى سحابة حمراء لم أبصر شيئا فجلست مكاني ساعة ثم تجلت عني فقمت فمشيت فلما بلغت نحو الثلثين غشيتنى سحابة خضراء فغشي بصري منها فجلست حتى تجلت ثم قمت فمشيت فانتهيت إلى الملك فسلمت عليه والترجمان بيني وبينه فأديت الرسالة وأوصلت الكتاب فأمرني بالجلوس وسألني عن الخليفة وعن أشياء من أمر الأقاليم ثم أمر بمنزل وإقامة ما أحتاج إليه وأمرني بالانصراف .. ثم ركبت معه ... فلما أنست به يوما وسألته عن أمر الأسدين والسيفين .. قال : أما الأسدان والسيفان فإنهما حيلة تحتل لمن ورد علينا من رسل الملوك لنروعهم بذلك وإذا قرب الرجل منهم سكنت كما رأيت(٨٢) .

لكن إذا كان الترويع قد شكل جانبا من مراسم استقبال عمارة بن حمزه ، فقد اختلف الأمر تماما في مشهد آخر ذكره أحد الحديثين نقلا عن جابر ابن حيان (عاش فى القرن الحادي عشر الميلادي) ، وفيه تفاصيل لقاء جمع بين الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) وزوجته ثيودورا Theodoraوالسفير المسلم الغزال - سفير أمير قرطبة عبد الرحمن الثاني (٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م) - فى القصر الإمبراطوري ، حيث عبر الإمبراطور فى هذا اللقاء للسفير الغزال عن اهتمامه بالفن والثقافة العربية ومدى إدراكه للتأثير الثقافي للحضارة الإسلامية على العالم البيزنطي . وحينما دعاه الإمبراطور في مرة

أخرى لتناول الطعام معه رفض الغزال مبررا ذلك بأن الإسلام يحرم شرب الكحوليات، وفى غمرة هذا الحوار دخلت الإمبراطورة ثيودورا فى زينتها، فاندهش السفير من تاجها المطعم بالجواهر، مما لفت نظر الإمبراطور وجعله يسأل عن سبب دهشته فأجابه الغزال: " إن جمال الملكة قد جذبني وشغلني عن الاستماع إليك، وجعلني أفكر في جمال حور الجنة " فسرت الإمبراطورة بسماع هذا الكلام. مما يعنى أنه كانت هناك مودة فى الحوار جعلت السفير الغزال لا يتردد في إبداء إعجابه بالإمبراطورة، أمام زوجها الإمبراطور ثيوفيل (٨٣) .

ومع ذلك كان الإمبراطور البيزنطي يستقبل السفراء أحيانا دون أن يخاطبهم بكلمة واحدة، فعندما وصل نصر بن الأزهر الشيعى - وكان رسول الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ /٨٤٧-٨٦١م) إلى الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) فى أمر الفداء - إلى القصر الإمبراطوري بالقسطنطينية وهو يحمل الهدايا الفاخرة، رفض البيزنطيون أن يدخل على الإمبراطور ميخائيل وهو بسواده حاملا سيفه، موضحين له أنه يحظر دخول السفراء على الإمبراطور بزيهم وحاملين أسلحتهم. وإذا كان الإمبراطور ميخائيل قد قربه في هذا اللقاء، فلم يكن الأمر كذلك عندما التقى به مرة أخرى بعد نحو أربعة شهور حينما جاءه نصر بن الأزهر في أمر الفداء حيث لم يكلمه الإمبراطور ميخائيل في هذا اللقاء كلمة واحدة، فيقول السفير المسلم: " ولم اسمعه يتكلم بكلمة واحدة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع، فيقول برأسه: نعم أو لا، وليس يتكلم وخاله المدبر أمره، ثم خرجت من عنده بالأسرى بأحسن حال"(٨٤). وعلى هذا النحو اختلفت مراسم الاستقبال باختلاف الأباطرة والسفراء وتأثرت هذه المراسم بظروف كل سفارة، لكن بما يحقق فى النهاية المصالح البيزنطية بالدرجة الأولى.

أيضا كانت لغة الحوار شكلا من أشكال الرسميات البيزنطية؛ ذلك أن عبارات الود والثناء أو الشدة الإباء، لعبت دورا مهما في العلاقات بين البيزنطيين وجيرانهم، ولم لا، والرسائل كانت خير الوسائل وأيسرها لإبراز النفوذ والقوة أحيانا، ومحاولة

كسب الود لتجنب الحروب وويلاتها أحيانا أخرى، وكانت تلك وسيلة مهمة من وسائل الدبلوماسية البيزنطية، وكان تجاهلها قد يكلف الإمبراطورية الكثير والكثير.

فقد رفض الخليفة العباسى المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) أن يقرأ رسالة الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل، بعدما رأى الإمبراطور يقدم في عنوانها اسمه على أسم الخليفة قائلا: " من توفيل بن ميخائيل إلى عبد الله بن هارون ". وردها المأمون على الفور إلى السفراء البيزنطيين قائلا: " خبروني ما الذي حمل صاحبكم على أن يكتب إلى وبدا اسمه قبل اسمي؟ " وأنا أكبر منه سنا وسليل خلفاء، فأجابوه - بعدما أعطاهم الأمان - قائلين: " من قعد على سرير الملك فقد ساوى غيره من الملوك كاننا من كان " فرد عليهم: " لولا ما أعطيتكم الأمان لما رجع إلى صاحبكم منكم أحد، ولكن ارجعوا بغير جواب وإن كان ملكا يساوي غيره كما تقولون "، وخرج المأمون على رأس جيشه متجها إلى بلاد الروم لتأديبهم وفتح بعض الحصون البيزنطية (٨٥).

ويبدو أن الإمبراطور رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapenus (٩٢٠-٩٤٤م) وعى الدرس جيدا ، فمن أجل الصلح مع المسلمين ، أهدى وولديه قسطنطين واسطاوانوس (ستيفانStephan) الخليفة الراضى بالله عام ٣٢٦هـ /٩٣٨م هدية نفيسة ومعها كتاب كتب بالرومية (المقصود هنا اللغة اليونانية) (٨٦) وبالذهب وكانت ترجمته العربية بالفضة وقال فى أوله " ... إلى الشريف البهى سلطان المسلمين ... وفى آخره .. والصلح والفداء وعقد الهدنة، ولما نحن عليه من استحكام المودة، وخلوص الميل على إخوتك وجّهنا إلى شريف حسبك شيئا من ألطاف تبين عن ذلك .... والسلام على الخليفة أطال الله بقاءه وأيده "(٨٧). وذهب الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس Constnantin VII Porphyrogenitus (٩٠٥-٩٥٩م) إلى أبعد من ذلك حينما ضمن البروتوكول الذي وضعه صيغا ودية إلى حد كبير أعدت خاصة للقاء سفراء بغداد أو القاهرة، وكان من بين المراسم التي وضعها أن يجلس الأصدقاء السراقة (المسلمين) فى مرتبة أعلى من الأصدقاء الفرنج ولمسلمي الشرق المرتبة الأولى بين كل المسلمين (٨٨). وهكذا

كانت مصلحة الإمبراطورية وقوة العدو أو ضعفه هي الضابط الرئيس للغة الحوار والتخاطب مع الآخر.

وقد برع البيزنطيون في كيفية التعامل مع الآخر وبشتى الوسائل، لذلك لم تكن هناك غضاضة فى معرفة لغته وكذلك عقيدته، وهناك روايات مختلفة تؤكد على ذلك. فعبادة ابن الصامت في سفارته - سابقة الذكر - وفى حواره مع الإمبراطور هرقل قال: ". فدنونا منه فإذا هو يفصح العربية، فقال لنا وضحك ما منعكم أن تحيوني بتحية نبيكم .... "(٨٩) . ولم يكن مثل هذا الأمر قاصرا على الإمبراطور، وإنما حرص قادته أيضا معرفة اللغة العربية، فقد طلب أحد البطارقة البيزنطيين من أسيره العربي المسمى قبات بن رزين اللخمي من سكان فسطاط مصر، وكان قد تم أسره فى خلافة معاوية بن أبي سفيان، أن يقرأ عليه سورة آل عمران ويسمعه بعض الأشعار، مما لفت نظر قبات وجعل يسأله " من أي العرب أنت؟ فضحك، ثم قال. لست عربيا. فقال قبات (متعجبا) مع هذه الفصاحة بالعربية!" (٩٠) .

والأغرب من ذلك أرسل ملك الروم (الإمبراطور البيزنطي نقفورلأول Nicephorius I ٨٠٢- ٨١١م) إلى الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦- ٨٠٩م) يطلب منه وبإلحاح الشاعر أبا العتاهية كى يسمع منه بعض أشعاره ويأخذ ما شاء من الرهائن لحين عودته، فكلم الرشيد أبو العتاهية لكنه اعتذر، حينئذ أمر الإمبراطور بكتابة بيتين من شعره على أبواب مجالسه وباب مدينته (٩١). وتظهر هذه الروايات وغيرها مدى حرص ساسة بيزنطة على إيجاد سبل مختلفة للتواصل والتعامل مع جيرانهم.

أما إذا ساءت العلاقات بين الجانبين وفشلت كل الوسائل الدبلوماسية في إصلاحها ، كان على السيف أن يقول كلمته ، وفى أطار الاستعدادات والتنظيمات العسكرية البيزنطية لمواجهة الأعداء يأتي ما نظام الثيمات (الثغور) على رأس هذه التنظيمات ، وهو نظام دفاعي بحت ، بموجبه تم تقسيم الإمبراطورية البيزنطية إلى عدد من المناطق العسكرية (٩٢) ، بلغت نحو أربعة عشر قسما تسمى بالبنود ، وهى تساوى نظام الأجناد لدى المسلمين ، غير أنها أوسع وأطول من نظيرتها

الإسلامية (٩٣) .وهذه البنود هى : الأفتى ماتى ، الابسيق ، ترقسين ، بنطيليا ، القباذق، البقلار ، الأفطماط ، الأرمنياق ، فلاغونية ، طابلا ، تراقية ، مقدونية ، بلبونيسة، سلونيكة (٩٤) . وتتطابق هذه الثيمات - بشقيها الأسيوي والأوربي - مع تلك التى وردت في المصادر البيزنطية باستثناء بند طابلا الذي يعتقد أنه كان يشمل مدينة القسطنطينية(٩٥).

كيفما كان الأمر، اهتمت المصادر الإسلامية أيضا بالناحية الدينية لدى البيزنطيين، حيث كان الإمبراطور دقلطيانوس (دقلديانوس ٢٨٤-٣٠٥م)) آخر عبدة الأوثان، وكان خليفته قسطنطين (قسطنطين الأول) أول من تنصر من ملوك الروم (٩٦). وهناك تفسيران للمؤرخين البيزنطيين للسبب الذى جعل قسطنطين الأول يعتنق المسيحية نقلهما لنا أحد المؤرخين الحديثين ،عن كل من إيزبيوس Eusebius وكطانيوس Lactanius ، فإذا كان إيزبيوس يرى أن السبب الذي على أثره اعتنق قسطنطين المسيحية هو أنه شاهد فى السماء هو ورجاله صليب يشع منه النور ومكتوب عليه سوف تنتصر بهذا ، وفى المساء رأى قسطنطين السيد المسيح يناديه ويطلب منه أن يحمل الصليب ليحميه من العدو، ولذلك صنع هو ورجاله فى اليوم التالي لواء من الذهب ومن الأحجار الكريمة وهو ما يسمى بالـ Labarum ، فإن لكتانيوس يؤكد أن السبب هو أن قسطنطين رأى رؤيا فى الليلة السابقة للمعركة ضد أعدائه ، طلب منه فيها أن يكتب على دروع جنده كلمة Caeleste Signum Dei(٩٧).

ولهذين التفسيرين صدى كبير في المصادر الإسلامية ؛ مما يؤكد على أن المؤرخين المسلمين كانوا على دراية بروايات تحول قسطنطين للمسيحية ؛ ذلك أن قسطنطين الأول خرج في بعض حروب برجان (لعلهم البلغار) أو غيرهم من الأمم المجاورة ، وكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة ، ثم كانت عليه في بعض الأيام ، فقتل من أصحابه خلق كثير ، فخاف البوار والهلاك ، فرأى في النوم كأن رماحا نزلت من السماء فيها عذاب وأعلاما على رؤوسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع من الجواهر والخشب وقيل له : خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوك

تنصر. فجعل يحارب بها في النوم ، فرأى عدوه منهزما ، وقد نصر عليه وولاه الدبر ، فاستيقظ من رقدته ، ودعا بالرماح فركب عليها ما ذكرنا ورفعها فى عسكره ، وزحف إلى عدوه ، فولوا وأخذهم السيف(٩٨).ويضيف المسعودي سبب آخر لاعتناق قسطنطين المسيحية ، وهو أن قسطنطين كان مصابا بالوضح (الجذام) وبالتالى كان لابد أن يتخلى عن منصبه وفقا للتعاليم الوثنية على عكس المسيحية التى لم يكن بها مثل هذه القيود ، وللخروج من هذا المأزق أرسل سبعا من الفرق العسكرية الضعيفة لمحاربة بعض من أعدائه ، وهى تحمل أسماء الأصنام السبعة المسماة باسم الكواكب السبعة وكانوا يقربون لها القرابين ، ولما عادت هذه الفرق مهزومة أزدرى قسطنطين الآلهة الوثنية وأقدم على اعتناق المسيحية بعد أن أشار عليه بذلك بعض أتباعه (٩٩).

ويدل ذلك على أن قسطنطين لم يكن - أبدا - مسيحيا مخلصا، وإنما اعتنق المسيحية لمصالح سياسية بالدرجة الأولى (١٠٠). وهو أمر جعل القاضى عبد الجبار يتذبذب فى حكمه عليه ، فتارة ينكر مسألة تحول قسطنطين إلى المسيحية بل ويتهمه بإفسادها فى مهدها الأول " فما أزال إلا عبادة الكواكب وما زاد إلا تعظيم المسيح والقول بربوبيته، وتعظيم الصليب " وتارة أخرى يؤكد اعتناقه لها وقضاءه على الوثنيين فقد كان " خبيثا مفكرا صبورا متصفحا أمر الفلاسفة وكل من كانوا على الوثنية وبعدما تأكد من بطلان معتقداتهم ، أمر بقتلهم على مختلف طبقاتهم ، واحرق كتبهم وأبطل هياكلهم ، فمكث على ذلك حتى خلت مدينة الفلاسفة (أثينا) منهم ، ولم يتبق بها إلا حرّاث ودبّاغ وصبّاغ "(١٠١) . وتعتبر شهادة القاضى عبد الجبار، الذي كان من بين المفكرين الإسلاميين الذين اتهموا الحواريين وأتباع المسيح الأوائل بإفساد المسيحية، مفارقة تاريخية وجزءا من أدب الجدل الإسلامي الذي اتهم المسيحيين بالانحراف عن المسيحية الحق، كما تعد مبالغة أيضا؛ ذلك أن الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧- ٥٦٥م) هو الذي أغلق مدرسة الفلسفة الشهيرة في أثينا عام ٥٢٩م، ومنذ ذلك الوقت فقدت أثينا أهميتها السابقة كمركز ثقافي وتحولت إلى مدينة من الدرجة الثانية (١٠٢).

على أى حال، بعد انتشار المسيحية بفترة قصيرة تمت الدعوة لعقد المجمع المسكوني الأول، والذي عقد فى مدينة نيقية عام ٣٢٥م وأشار إليه عدد من المؤرخين المسلمين، لكن اختلفت انطباعاتهم عنه، فيذكر المسعودى أن هذا كان السنودس الأول (أى المجمع الأول) من المجامع المسكونية الستة، وأنه كان فى العام التاسع عشر من حكم قسطنطين، وحضره نحو ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا، ووقعوا قرار الحرمان على آريوس الأسكندراني، واتفقوا على أن يكون فصح (عيد) النصارى يوم الأحد كي لا يتفق مع فصح اليهود(١٠٣). أما حمزة الأصفهاني، فقد أشار إلى أن قسطنطين جمع فى نيقية فى السنة التاسعة عشر من حكمه نحو ثلاثمائة وأثنى عشر أسقفا كى يضعوا شرائع النصرانية، وبعد هذا المجمع تحول كل البيزنطيين إلى النصرانية (١٠٤).

ويلاحظ هنا أن الأصفهاني رأى أن تحول سكان الإمبراطورية البيزنطية إلى المسيحية كان فوريا، متجاهلا بذلك الفترة الانتقالية الطويلة التى تحول فيها البيزنطيين من الوثنية إلى المسيحية(١٠٥). وفى كل الأحوال فقد تم فرض قرارات مجمع نيقية على سكان الإمبراطورية بالقوة، وتعرض كل من رفضها للتعذيب والقتل (١٠٦). وبغض النظر عن هذا الأمر، فيبدو أن القاضى عبد الجبار كان معجبا بحكم قسطنطين الأول " الروم يصفونه بالحزم والشهامة وأنه فيهم كأردشير (ت ٢٤١م) بن بابل ملك فارس فى الفرس" واتفق عبد الجبار فى هذا التشبيه مع المسعودي الذي بدأ تاريخه عن الطبقة الثانية من ملوك الروم المتنصرة بالحديث عن قسطنطين، مثلما ابتدأ الحديث عن ملوك فارس بالحديث عن ملكهم أردشير (١٠٧).

جدير بالذكر، أن المجامع الدينية لم تحل دون انقسام النصارى فى الإمبراطورية البيزنطية إلى فرق مختلفة: الأولى منهم عرفت بالملكائية (١٠٨) وهم الروم، الذين سموا بذلك لأن ملك الروم على قولهم، والثانية بالنسطورية نسبة إلى نسطورس، والثالثة اليعقوبية(١٠٩) وهذه هى أعظم فرقهم وهناك فرقة الأريوسية ورأيهم فى المسيح هو الأقرب إلى رأى المسلمين. إلى غير ذلك من الفرق الأخرى، لكن الملكائية والنسطورية هم الأكثر عددا؛ لأن الروم ومن حولهم كانوا ملكائية أما بلاد الشام

والعراق وخراسان فأكثرهم نسطوريون، واليعاقبة كان أكثرهم من القبط ومن يجاور مصر (١١٠). وجميعهم كانت عبادتهم بالنية ولا يرون الاغتسال من الجنابة ولا للوضوء (١١١).

وكما كان للبيزنطيين ألقاب سياسية، كان لهم أيضا ألقاب دينية من بينها - وهى تسع مراتب - الشماس - وهو أدناها - والقس والأسقف والمطران، والقاثوليك وهو الجاثليق وغيرها لكن أعلاها كان البطرك (البطريرك) (١١٢)، وكان هناك أربعة كراس مقرا لأربع بطاركة، كرسى مدينة القسطنطينية وكرسى رومية (المقصود هنا بيت المقدس) وكرسى الإسكندرية وكرسى إنطاكية، وكان لكل واحد من البطاركة الأربعة منطقة نفوذ تابعة له (١١٣) .

أما عن العلاقة بين السلطتين الدينية والدنيوية في الدولة البيزنطية أو علاقة البطريرك بالإمبراطور، فعلى الرغم من صعوبة الفصل بين السلطتين اللتين كان يجمع بينهما الإمبراطور فى بيزنطة، فقد حاول البعض أن يوضح اختصاصات ومهام كل من البطريرك والإمبراطور. فإذا كان الأول يجلس على رأس الهرم الديني ويقوم بجمع الأموال اللازمة لنفقات الكنائس والأديرة ورجال الدين ويتمتع بأعلى سلطة روحية في البلاد ولا يشارك الإمبراطور أحد إلا هو، وكان له نائب في كل بند، فإن الثاني كان يجلس على رأس الهرم الدنيوي وعليه أن يجهز الجيوش ويجمع الضرائب ويدفع رواتب الجند، ويتضح ذلك مما ذكره المؤرخ المسعودي " .... وهو ملك الدين والقيم (يقصد البطريرك) به كما أن الملك صاحب السيف فهو صاحب كرسي القسطنطينية إلى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا وصاحب الكرسي ، هو شريك الملك ، ليس يساوى الملك في الخلق أحد إلا هو ، ولا يكفر الملك إلا له وإذا جلس الملك جلس على كرسي من ذهب وجلس البطريرك على كرسي من حديد ، فما كان من نفقات الحرب وجباية الخراج وإعطاء الجند فهو إلى الملك وما كان من أموال الأحباس والوقوف لنفقات الكنائس والديرة والأساقفة والرهبان وما أشبه ذلك من أمر دينهم فهو إلى البطريرك وله في كل بند عامل مثل عامل الملك ... " (١١٤). وقد يبدو علو شأن البطريرك أيضا من خلال نص الحوار الذي دار بين دحية مبعوث الرسول صلى الله

وسلم والإمبراطور البيزنطى هرقل الذي قال لدحية حين قدم إليه يحمل كتاب الرسول صلى عليه وسلم " ويحك! والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل؛ إنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا؛ ولكنى أخاف الروم على نفسى؛ ولولا ذلك لاتبعته؛ فاذهب إلى صغار الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم؛ فهو والله أعظم في الروم مني وأجوز قولا منى؛ فانظر ما يقول لك"(١١٥) .

لكن الواقع الفعلي كان غير ذلك ، وذلك بشهادة رجال الدين البيزنطيين أنفسهم ، فعندما تزوج هرقل - على سبيل المثال - من ابنة أخته مارتينا Martina عام ٦١٢/٦١٣م (١١٦) وهو زواج محرم وحاول بطريرك القسطنطينية سر جيوس Sergius (٦١٠- ٦٣٨م) أن يضغط عليه لقطع صلته بهذه المرأة ، رد عليه هرقل قائلا : " حسنا ما تقوله ، لقد قمت بواجبك نحوى ككاهن عظيم وصديق، أما الباقي فاتركه لي فمسؤوليته كاملة تقع على عاتقي " (١١٧)، بل وكان الإمبراطور يتدخل عند ترشيح من يتولى منصب البطريرك نفسه ليفرض مرشحه هو بدلا من المرشح الذي تختاره الكنيسة ، فالبطريرك نفور Nicephoriusنفسه يدين بتعيينه في منصبه عام ٨٠٦م إلى سميه الإمبراطور نفور الأول (١١٨) . وبالتالي فالكتاب المسلمون لم يكونوا دقيقين في هذا الأمر وتحدثوا عما كان سائدا من الناحية النظرية. أما الواقع الفعلي، فالعلاقة بين الدولة والكنيسة في الإمبراطورية البيزنطية، هي علاقة حسم الصراع فيها منذ فترة مبكرة لصالح الدولة في شخص إمبراطورها. فالإمبراطور البيزنطي جمع بين يديه السلطتين الدنيوية والدينية. ففي الوقت الذي كان يحكم فيه ويقود الجيوش ويعقد المعاهدات، كان يتدخل في شئون الكنيسة، إما لحل مشاكلها أو الدعوة لعقد المجامع الدينية أو لترشيح رجال الدين وعلى رأسهم البطريرك، أو لغير ذلك من الأمور الدينية البحتة (١١٩). ورغم ذلك تظل طبيعة العلاقة بين الإمبراطور والبطريرك من الأمور الغامضة في التاريخ البيزنطي؛ لتقلب هذه العلاقة لأسباب مختلفة منها الديني والسياسي وتعكس الآراء المختلفة في المصادر الإسلامية والبيزنطية صدى هذا الغموض.

Zara hid)، الذي فقده بأرض الروم أثناء وجوده بها، وعاش فيها الأخير لفترة من الزمن وتعلم لغتهم وقرأ كتبهم ولما عاد إلى كسرى وخلا به، سأله كسرى عن مدى معرفتهم بالطب قال:" فمعرفتهم بالطبائع والجواهر وعلاج الحرارة والبرودة وفضول المرّة والبلغم والعقاقير المسماة لهم لا يعرفون غير ذلك "(١٣٢). وبالتالي هناك تضارب في المصادر الإسلامية حول مدى معرفة البيزنطيين بعلم الطب، ولعل ذلك يرجع إلى خلط الكتاب المسلمين بين الإغريق القدماء والرومان والبيزنطيين، ولذلك من الصعوبة بمكان الوصول إلى رأى قاطع في هذا الأمر.

وكان من بين العلوم التي نبغ فيها البيزنطيون أيضا علم الكيمياء، حتى قيل على ملك الروم ملك الأكسير (١٣٣)، أي الكيمياء؛ ذلك الخليط الذي يذكر الخوارزمي أن القدماء كانوا يحولون به المعادن إلى ذهب وفضه بقوله: " ملح الأكسير هو الدواء الذي إذا طبخ به الجسد المذاب جعله ذهبا أو فضه أو غيره إلى البياض أو الصفرة "وإن كان ذلك بمشقة بالغة، لأن أي نقص أو خلل فيه يبطل ذلك التحويل (١٣٤). وقد شاهد السفير العربي عمارة بن حمزة بنفسه تجربة كيميائية أجراها أمامه الإمبراطور البيزنطي، فلما عاد وحدث بها الخليفة المنصور أعجب بها وحرص على تعلم علم الكيمياء (١٣٥). ومن هنا كان الإمبراطور البيزنطي يتمتع بقدر عال من المعرفة، التي جعلته يبدو وكأنه صاحب سلطة ساحرة شكلت أساس لثروة الإمبراطورية (١٣٦).

بيد أن الأمر الذي لا ريب فيه، هو حذق البيزنطيين في مجال النحت والتصوير والزخرفة، حتى أنهم يصورون صورا يظهر عليها الحزن، وأخرى يظهر عليها الفرح والسرور (١٣٧). " ويصور مصورهم الإنسان حتى لا يغادر منه شيئا ثم لا يرضى بذلك حتى يصيره شابا وإن شاء كهلا وإن شاء شيخا ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلا ثم يجعله حلوا ثم لا يرضى ، حتى يصيره ضاحكا وباكيا ثم يفصل بين ضحك الشامت وضاحك الخجل وبين المستغرق والمبتسم والسرور وضحك الهادي" (١٣٨). وهكذا لم يقنع الفنان البيزنطي إلا إذا حول في النهاية الشكل الذي يصوره إلى

صبي صغير أو شاب أو رجل عجوز على أن يكون إما ضاحكا أو باكيا، بل كان بإمكانه أن يعبر عن أكثر من ابتسامة لدى الشخص الواحد(١٣٩).

على صعيد آخر، كان البيزنطيون أصحاب مهن وصناعات (١٤٠)، ومن بينها صناعة الفرش من الديباج والطنافس والقطف والبزيون(١٤١) وكانوا مهرة فى نسج الأقمشة المطرزة ذائعة الصيت، حتى أن بعض الناس كانوا يتمنون لو صب الله عليهم دبابيج الروم(١٤٢). أيضا كان فيهم الحذاق بعمل المنجنيقان وعجائب الصيغة (١٤٣).

وكان البيزنطيون أيضا، أهل تانية وأصحاب فدان وزراعة، ويرث الأبناء الآباء في مهنهم وضياعهم وإقطاعهم (١٤٤)، وكان عندهم بقر وخيل وشاء (١٤٥)، وكانت أغذيتهم الشواء والصليق، وأكثرها في صيدهم مما في مروجهم من الطير والدواب (١٤٦)، غير أنهم لم يكونوا نابغين - من وجهة نظر الباحث - في مجال الزراعة، وربما يفسر ذلك ما ذكره ابن حوقل عن طبيعة أرضهم الجبلية ففيها " جبال لا تحد لكثرتها " (١٤٧). ولذلك لا غرابة في أن العاصمة البيزنطية كانت تعتمد في خبزها اليومي على ما يأتيها من غلال سواء من مصر أو بلاد الشام.

وهكذا حاول مؤرخو القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين، ألقاء الضوء بشكل أو بآخر على الحضارة البيزنطية من منظور إسلامي، ويمكن استنتاج ما يلي:

أولا: هناك تضارب - في بعض الأحيان - في المصادر الإسلامية وازدراء مختلط بإعجاب بشأن الحضارة البيزنطية، ففي الوقت الذي يثنى المسعودي على مملكة الروم (البيزنطيين) بقوله:" ثابتة الرسوم متسقة التدبير " (١٤٨)؛ يزدريها ابن حوقل عند وصفه ما بها من " صغر المحل ونزور الدخل وضعة الرجال وعزة الأموال وخسيس الأعمال والأحوال " (١٤٩)، مما يجعل الباحث في حيرة أمره عند قراءة ما كتب بالمصادر الإسلامية عن إنجازات الحضارة البيزنطية.

ثانيا: عرف المسلمون واستوعبوا كل أشكال الرسميات البيزنطية، ووصفوا بعض نواحيها وامتدحوا ورفعوا من مكانة الآخر إذا استحق ذلك، وانعكست كل صور الفخامة والثروة البيزنطية على العرب الذين أعجبوا بأشكال الرسميات البيزنطية.

ثالثا: كان أهم شيء تحرص الإدارة البيزنطية على إظهاره في مراسمها هو سلطة الحاكم وقوة إمبراطوريته، وكان الذهب خير وسيلة لإظهار السلطة والقوة، ولذلك ورد ذكره مرارا في المراسم البيزنطية وأدهش المؤرخين المسلمين، ولما شعر الخليفة العباسي المأمون بمحاولة الإمبراطور ثيوفيل إظهار قوته من خلال هديته الثمينة للخليفة، أمر الأخير مستشاره أن يرسل هديه للإمبراطور تكون مائة ضعف الهدية التي أرسلها له " ليعلم عزّ الإسلام ونعمة الله علينا به " (١٥٠).

رابعا: يستطيع القارئ لما كتبه المؤرخون المسلمون عن أباطرة بيزنطة في العصور الوسطى أن يعرف أمرين: الأول، نظرة العرب المسلمين لأباطرة بيزنطة، الثاني، فكرتهم عن الحاكم المثالي في عصرهم.

خامسا: أهملت المصادر الإسلامية الحديث عن جوانب كثيرة من الحضارة البيزنطية، كالتعليم ونظام الحكم والإدارة والجيش، والريف والمدن .... إلى غير ذلك من ركائز الحضارة البيزنطية وانصب جل اهتمامها ـ لسبب أو لأخر ـ على جوانب بعينها.

قائمة المصادر والمراجع والمختصرات

أولا : المصادر العربية والمعربة :

ابن أعثم الكوفى:**الفتوح** (ت نحو سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م) أبي محمد بن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح ، تحقيق على شيري ، بيروت ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

ابن الفراء : **الملوك** (ت ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥م)أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف المعروف بابن الفراء :رسل الملوك ، http://www.roo٧e.com/book/view-٧٥١.html

ابن الفقيه :**البلدان** أبو بكر أحمد بن محمد الهذانى المعروف بابن الفقيه (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م): مختصر كتاب **البلدان** ، ليدن،١٣٠٢هـ .

ابن النديم:**الفهرست** (ت٣٨٥هـ/٩٩٥م) أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحق المعروف بالوراق: الفهرست في أخبار العلماء والمصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ، تحقيق رضا حداد ، د - ت، ن .

ابن حوقل: (ت٣٦٧هـ / ٩٧٧م) أبى القاسم بن حوقل النصيبى : كتاب

صورة الأرض صورة الأرض، بيروت،١٩٩٢م .

ابن خرداذبه :**المسالك** (ت٢٨٠هـ/٨٩٣م)أبى القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه: المسالك والممالك ويليه نبذه من كتاب الخراج= وصنعة الكتابة لأبي قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي،ليدن،١٨٨٩م .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م)ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن ... جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون): مقدمة ابن خلدون، وهى الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر و من

الرشيد بن الزبير:**الذخائر** (ت القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادى)القاضى الرششد بن الزبير : كتاب الذخائر والتحف ، حققه الدكتور محمد حميد الله ، قدم له وراجعه الدكتور /صلاح الدين المنجد ، سلسلة التراث العربي -١- ، الكويت ، ١٩٥٩م.

المسعودي : **مروج** (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودي: مروج الذهب و **معادن** الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ٣ج، ط٥، بيروت، ١٩٧٣م.

ـــ **أخبار** أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، وعجائب البلدان والغامر بالماء العمران ، طبعه عبد الحميد أحمد حنفي ، ط ١، القاهرة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م ٠

ـــ **التنبيه** التنبيه والإشراف، ليدن ، ١٨٩٣م .

المقدسي:**البدء والتاريخ** (ت حوالى منتصف القرن الرابع الهجري)المطهر بن طاهر المقدسى:كتاب البدء والتاريخ. للمطهر بن طاهرالمقدسى المنسوب تأليفه لأبى زيد أحمد بن سهل البلخي ، ٣ج ، القاهرة ، د ـ ت .

المقدسى:**أحسن التقاسيم** (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) محمد بن أحمد المقدسى المعروف بالمقدسى البشاري: كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٨٧٧م.

النعمان بن محمد:**المجالس** (ت٣٦٣هـ/ ٩٧٣م)القاضى النعمان بن محمد: كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق،الحبيب الفقي ، إبراهيم شبوح ، محمد اليعلاوى ، بيروت ، ١٩٩٦م.

النويرى : **الأرب** (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى : نهارية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق الدكتور يحي الشامى١١ ج ، بيروت ، د ت ٠

اليعقوبي : **تاريخ** (ت ٢٨٤هـ أو٢٩٨هـ/٨٩٧م /٩١٠م)أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح .الكاتب العباسى ، المعروف باليعقوبي : تاريخ اليعقوبى،٣ج ، ليدن،١٨٨٣م.

تفسير سفر التكوين: تفسير سفر التكوينن د ـ ت، ن.

صاعد الأندلسي:**الأمم** (ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩ـ ١٠٧٠م)أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى: **كتاب الأمم** الأمم ، نشره وذيله بالحواشي وارد فه بالروايات والفهارس الأب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ١٩١٢م .

عبدالجبار الهمذاني: (ت ٤١٥هـ/١٠٢٤م): (قاضى القضاة) عبد الجبار بن أحمد

دلائل النبوة الهمذاني تثبيت دلائل النبوة **دلائل النبوة** ، حققه وقدم له الدكتور عبد الكريم عثمان ١٤ج ، بيروت، ١٩٦٦م .

قسطنطين السابع :**إدارة** إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، عرض وتحليل وتعليق د/ محمود سعيد عمران ، بيروت،١٩٨٠م.

محمد ناصر الدين الألباني :صحيح الجامع الصغير وزياداته،٢ج، القاهرة ، د ـ ت .

مسكويه: **تجارب الأمم** (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م)أبى على أحمد بن محمد المعروف بمسكويه : كتاب تجارب الأمم ،اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ ف آمذروز ، القاهرة ، د ت.

هلال الصابئ:**الخلافة** (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) أبى الحسين هلال بن المحسن الصابئ : رسوم دار الخلافة ، عنى بتحقيقه والتعليق عليه ميخائيل عواد ، ط ٢ ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

ثانيا : المصادر الأجنبية :

Constantine Porphyrogenitos,

Constantine VII Porphyrogenitos Le Livre des Ceremonies,trad et com par Vogt , ٢.Vol, Paris,١٩٥٣.

CSHB : Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn, ١٨٣٤.

Genesius, I .Genesius Historia,**CSHB** ed Niebuhrii, B, Bonn,١٨٣٤.

Theophanes, Theophanes,The Chronicle of Theophanes

The Chronicle Confessor, Byzantine and near Eastern history A٢٨٤ - ٨١٣ , trans with Introduction and commentary by Mango,C and scott,R, with the assistance of Great-Rex G,Oxford, ١٩٩٧.

Theophanes Continuatus , Ioannes Cameniata , Symeon Magister , Georgius Monchus Continuatus , **CSHB** ed, Niebuhri Niebuhrii,F,Bonn,١٨٣٨.

ثالثا :المراجع العربية :

أسد رستم : **الروم** الروم ، في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، ١٩٥٥م .

إبراهيم احمد العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ط ١ ،الفيوم ،١٩٩٤م .

جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية(٢٨٤-١٤٥٣م)،الإسكندرية،٢٠٠٩م .

الدولة

رأفت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، فى كتاب : بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، ط١، القاهرة ، ١٩٩٧م.

قواعدالدبلوماسية

رنسمان :**الحضارة** الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، سلسلة الألف كتاب الثاني ، ط٢،القاهرة ، ١٩٩٧م .

سعيد عاشور : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٦م .

ـــــ المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، ط ٢ ، القاهرة، ١٩٨٢م .

سيد الناصري : الإغريق ، تاريخهم وحضارتهم من العصر الهيلادى حتى قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر ، القاهرة ،٢٠٠٣م .

عبد العزيز رمضان: المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية ، القاهرة ، ٢٠٠٥م.

المرأة

عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى،ط٧،القاهرة، د ـ ت .

علية الجنزوري:**المرأة** المرأة في الحضارة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٨٢م.

عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، تقديم الأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران ، الإسكندرية ، ٢٠٠٣م.

فازيلييف : **الروم** العرب والروم ، ترجمه الدكتور / محمد عبد الهادي شعيره ، راجعه الدكتور / فؤاد حسين على ، القاهرة ، د ـ ت.

محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوربا فى العصور الوسطى،الإسكندرية ، ١٩٨٦م

هانئ البشير : الدولة البيزنطية (٦٤١-٧١١م) ،القاهرة ، ٢٠٠٠م .

رابعا : المراجع الأجنبية

Alexander P Kazhdan and others, The Oxford Dictionary of Byzantium, ٣,Vols, Oxford, ١٩٩١.

Alexander,P., P.Alexander," The Strength of Empire and Capital as Seen through Byzantine Eyes" **Speculum**.,Vol.٣٧,No.٣,١٩٦٢,pp.٣٤٠-٣٥٧.

Averil Cameron , Averil Cameron , The Byzantines, Oxford , ٢٠٠٦.

Bury, J.B., Bury , Ahistory of the Eastern Roman Empire , (٨٠٢-٨٦٧), London ,١٩١٢ .

Elcheikh-Saliba,N., Elcheikh-Saliba,Viewed by the Arabs,ph.D,

Byzantium Harvard University,١٩٩٢.

الهوامش

* تحتوي هذه الدراسة على البحث الذي دعمته عمادة البحث العلمي بجامعة الدمام برقم (٢٠١٢٠٢٩) ، ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر لجامعة الدمام على تشجيعها ودعمها للباحث طوال عام كامل ، كما أشكر أيضا أستاذي الدكتور / أسامة زكى زيد ، على ملاحظاته القيمة التى أثرت هذه الدراسة وجعلتها تخرج بشكلها الحالي ، وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث تم إلقاؤه فى سمينا قسم التاريخ بكلية التربية بحفر الباطن ـ جامعة الدمام فى شهر أبريل عام ٢٠١٢م ، وقد اتبع الباحث فى هوامشه نظام المختصرات الذي ورد بشأنه دليل تم نشره فى دورية: Dumbarton Oaks Papers,٢٦(١٩٧٢)PP.٣٦٢-٣٦٥،٢٧(١٩٧٣) pp.٣٢٩-٣٣٩.

(١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٢١٦؛ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ط ٧ القاهرة، د ـ ت، ص ٩.

(٢) سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٥-١٧؛ أسد رستم: الروم، في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، ١٩٥٥م، ج ١، ص ٣.

(٣) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٣.

(٤) ورد في القرآن الكريم سورة تحمل اسم الروم، يقول فيها تعالى (الم (١) غُلِبَتْ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)، وفى السنة النبوية فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي أخذ القرون قبلها شبرا بشبر، وذراعا بذراع، قيل يا رسول الله كفارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا أولئك؟ حديث صحيح، انظر: محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزياداته، القاهرة، د ـ ت، ج ٢، رقم ٧٤٠٨، ص١٢٣٥؛ محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص١٢.

(٥) إبراهيم احمد العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ط ١، الفيوم، ١٩٩٤م، ص ٤.

(٦) ستيفن رسمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، سلسلة الألف كتاب الثاني، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٢٣.

(٧) انظر على سبيل المثال ما كتبه كلا من الراهب ثيوفانيس والبطريرك نقفور:

-Theophanous، The Chronicle of theophanes confessor، Byzantine and near Eastern history A ٢٨٤-٨١٣, trans with Introduction and commentary by Mango , C and scott,R, with the assistance of Greatrex G,(Oxford,١٩٩٧),PP.١١٢،١٥٧،٢٦٦،٤٣٧.

انظر أيضا: البطريرك نفور: التاريخ المختصر ٦٠٢- ٧٦٩م، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور / هانئ البشير، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٧١، ٧٧، ٨١، ٨٢.

(٨) Averill Cameron The Byzantines، (Oxford,٢٠٠٦)، P.١. ،

ومن أمثلة المؤرخين الحديثين الذين فضلوا اسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية واسم الروم في كتاباتهم، انظر: Bury,J.B., Ahistory of the Eastern Roman Empire,(٨٠٢-٨٦٧),(London,١٩١٢).انظر أيضا: أسد رستم: الروم، إبراهيم العدوى: إمبراطورية الروم.

(٩) سيد الناصري: الإغريق، تاريخهم وحضارتهم من العصر الميلادي حتى قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر، القاهرة،٢٠٠٣م، ص ١٨٢.

(١٠) ولد بالقسطنطينية بين عامي عام ١٤٠٠-١٤٠٥م، ولم يتخذ اسم جورج إلا بعد تعميده وكان يجيد اللغة اللاتينية، كما كان أحد كبار علماء الدين وتولى منصب بطريرك القسطنطينية أكثر من مرة خلال الأعوام ١٤٥٤- ١٤٥٦ م ، ١٤٦٣، ١٤٦٤- ١٤٦٥م ،وتوفى عام ١٤٧٢م ، انظر :

Alexander P Kazhdan and others, The Oxford Dictionary of Byzantium, (Oxford, ١٩٩١) Vol.٢, P.٨٣٠.

(١١) رسمان: الحضارة، ص ٢٤.

(١٢) يذكر المؤرخ الروسى فازيلييف Vasiliev,A أنه لا يمكن بشكل أو بآخر أن يتم تجاهل المصادر الإسلامية عند التأريخ للدولة البيزنطية ؛ لأن بها الكثير من المعلومات الجديدة والممتعة ،انظر : فازيلييف : العرب والروم ، ترجمه الدكتور / محمد عبد الهادي شعيره ، راجعه الدكتور / فؤاد حسين على ،القاهرة ، د ـ ت ، ص ٦ .

(١٣) رأفت عبد الحميد:" قواعد الدبلوماسية البيزنطية " في كتاب: بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، ط ١، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ١١٥.

(١٤) صاعد الأندلسى: كتاب طبقات الأمم، نشره وذيله بالحواشي وارد فه بالروايات والفهارس الأب لويس شيخو اليسوعي، بيروت، ١٩١٢م، ص ٣٣؛ ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٨١؛ المقدسي: البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسى المنسوب تأليفه لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، القاهرة، د ـ ت، ج ٤، ص ٦٧.

(١٥) صاعد الأندلسي: الأمم، ص ٣٥.

(١٦) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٥، بيروت، ١٩٧٣م، ج ١، ص ٣٠٨.

(١٧) Elcheikh-Saliba,Byzantium Viewed by the Arabs,Ph.D,(Harvard University)١٩٩٢,P.٤٨.

(١٨) تفسير سفر التكوين (د ـ ت) ، ص ١٠٢ ؛ المسعوي : مروج ، ج ١ ص٣٠٨.

(١٩) Elcheikh-Saliba, Byzantium,PP.٤٨-٤٩.

(٢٠) المسعودي: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء العمران، طبعه عبد الحميد أحمد حنفي، ط ١، القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م ، ص ٧٠ ؛ البيهقي : تثبيت دلائل النبوة ،تحقيق د/ عبد المعطي قلعجي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ، ج ٤ ، ص ٣٨٣.

فسر ابن الفقيه اسم بنو الأصفر بقوله: أنه بمرور الزمن ووفاة ملك الروم ـ دون أن يحدد لنا من هو هذا الملك ومتى حدث ذلك؟ ـ لم يجد الروم بينهم الشخص المناسب لتولى الحكم، ولذلك قرروا أن ينصبوا عليهم أول شخص يخرج عليهم، وكان هذا

الشخص عبد حبشي آبق من مولاه، فزوجوه من ملكتهم التي أنجبت منه طفلا سموه بالأصفر؛ لأنه ثمرة زواج أب أسود وأم بيضاء، انظر: ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ، ص ١٤٩.

وتكمن خطورة هذا التفسير في تقليله من شأن البيزنطيين، لم لا، ومكانة الفرد في المجتمع العربي كانت مرتبطة بمكانة عشيرته وعلو شأنها، وعدم ربط البيزنطيين بأي خط عشائري، يعنى التقليل من شأنهم والتأكيد على عدم جدارتهم بين الأمم آنذاك، انظر:

Elcheikh-Saliba, Byzantium, P.٥١.أما ابن قتيبه فقد قدم تفسيرا محايدا، وذلك عند حديثه عن عيصو بن اسحق بن إبراهيم عليه السلام، بقوله " كان عيصو رجلا أحمر شعر الجسد .... وهو أبو الروم، وكان الروم رجلا جلدا احمر، أصفر في بياض، شديد الصفرة، فمن أجل ذلك سميت الروم بنى الأصفر " انظر : ابن قتيبة : المعارف ، حققه وقدم له دكتور ثروت عكاشه ، زخائر العرب ٤٤، ط ٤ ، القاهرة ، د ـ ت ، ص ٣٨ .

(٢١) صاعد الأندلسي: الأمم، ص ٣٣-٣٥.

(٢٢) الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، (د ـ ن، ت)، ص ٥٩؛ المسعودى: مروج، ج١ ، ص ٣١٧.

(٢٣) سعيد عاشور: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٦م ، ج ١، ص ٢٤- ٢٦ .

(٢٤) Alexander,P.," The Strength of Empire and Capital as Seen through Byzantine Eyes," Speculum Vol.٣٧ , No.٣ (١٩٦٢) P.٣٤١ (٢٥); Elcheikh - Saliba , Byzantium , PP.٢٠٥ , ٢٠٦.

المسعودي : التنبيه والإشراف ، ليدن، ١٨٩٣م ، ص ١٣٨- ١٣٩؛ مروج ، ج ١، ص ٣١٧ .

(٢٦) صاعد الأندلسى : الأمم ، ص ٣٣-٣٥.

(٢٧) ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٤٦.

(٢٨) المقدسى : البدء والتاريخ ، ج ٤، ص ٦٨.

(٢٩) Genesius,Historia,CSHB ed Niebuhrii,B(Bonn,١٨٣٤),P.٣٣.

(٣٠) المسعودى : التنبيه ، ص ١٤١ ؛ ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٢٣ ؛ ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٣٦ .

(٣١) المقدسى : البدء والتاريخ ، ج ٤ ، ص ٦٨.

(٣٢) عبدالجبار الهمذاني: تثبيت دلائل النبوة، حققه وقدم له الدكتور عبد الكريم عثمان، بيروت، ١٩٦٦م ، ج١، ص ١٥٧ ؛ المسعودى : أخبار ، ص٧٦.

(٣٣) عبد الجبار الهمذاني: دلائل النبوة ج١، ص ١٥٧، ١٥٩.

يذكر فى هذا الصدد أن المرأة البيزنطية كانت تبغض ديانات الأنبياء من بني إسرائيل لما فيها من إباحة الطلاق وأن للرجل أن يتزوج ما أطاق المؤونة، انظر: عبد الجبار الهمذاني: دلائل النبوة، ج ١ ص ١٥٧.

رغم ما ذكره عبد الجبار الهمذاني من أن الرجل كان للحق فى أن يستقصى الفتاه التى سيتزوجها ، يذكر بعض الحديثين أنه كان هناك فتيات كن يعشن عيشة الاعتزال إلى حد ما ، وربما لا يرين أزواجهن حتى تقرر كل شئون الزواج ، وكان والدها أو ولى أمرها هو الذي يختار لها الزوج ، ولكنهن لا يكدن يتزوجن حتى يستمتعن بمطلق الحرية ، وربما كان ذلك ـ من وجهة نظر الباحث ـ فى المناطق الريفية على عكس المدن التى دائما ما يكون= التحرر فيها بشكل أكبر ، انظر : علية عبد السميع الجنزوري : المرأة في الحضارة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٨٢م، ص ١٨٦؛ جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ـ١٤٥٣م)، الإسكندرية ، ٢٠٠٩ ، ص ٨٧ .

(٣٤) عبد الجبار الهمذاني: دلائل النبوة، ج١ ص ١٦٧.كان على الرجل أن يدفع للمرأة البغي فلس واحد عن كل إنزاله، وكانت قيمة كل أربعة أفلس دانق فضة، انظر: عبد الجبار الهمذاني: دلائل النبوة، ص١٦٧. أجبر الفقر والجوع عددا كبيرا من الفتيات على احتراف مهنة الدعارة، وبذلك كان هناك موردا منظما من الفتيات يتم جلبهن من الريف إلى المدن عن طريق القوادين وسماسرة الرقيق، ورغم محاولة الكنيسة والتشريعات المدنية لمحاربة هذه المهنة وتحسين أحوال البغايا، إلا أن هناك شواهد كثيرة تشير إلى استمرارها حتى وقت متأخر من الإمبراطورية، وحتى

الأباطرة أنفسهم كانت هناك أسراب من البغايا تتبعهم أينما ذهبوا. انظر: عبد العزيز رمضان: المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية (القاهرة، ٢٠٠٥م) ص ٨٤-٨٦.من ناحية أخرى، كان إذا ما زنى شخص بامرأة من العبيد في منزل سيدها يعاقب، أما إذا زنى بها فى مكان آخر فلا عقاب عليه، وإذا أنجبت طفلا نتيجة هذه العلاقة الآثمة فإن الكنيسة كانت لا تعترف بهذا الابن، ولا يرث والده لاسيما إذا كان لهذا الأب ابن آخر من امرأة حرة. أما فى القضاء الجنائي فالقاتل متعمدا يُقتل، أما خطأ فينفى، ويُلعن كل من ارتكب اللواط أو شهد الزور أو شرب الخمر، انظر:

Elcheikh-

Saliba,Byzantium,PP. ٨٠-٨٢.

(٣٥) عبد الجبار الهمذاني: دلائل النبوة، ج١ ص ١٧٠-١٧١.

(٣٦) عبد العزيز رمضان: المرأة، ص ٨٥ حاشية رقم ٢.

(٣٧) عبد الجبار الهمذاني: دلائل النبوة، ج١ ص ١٧١.يذكر أحد الأسرى المسلمين أنه بعدما تظاهر باعتناق النصرانية، أن الملك (يقصد الإمبراطور) أعطاني وأجزل لى العطاء وقال لخدمه وأعوانه، انظروا لهؤلاء المنتصرة نساء من ذوي اليسار يتزوجون بهن لتحسن أحوالهم، فقال رجل منهم فلانة قد مات أبوها، ولها ضيعة ومواش وأموال كثيرة نزوجها بهذا، وأشار إلىّ، فزوجوني بها. فإذا هناك جمال ومال كثير فأقمت معها مسرورا، ثم ضرب الملك بعثا على جماعة أنا منهم ليخرج إلى مكان فيه زرع مستحصد يخاف عليه العدو أن يمنعهم منه، ويكون مقامنا أربعين يوما، ثم يأتى بعدنا عسكر يقومون مقامنا ونرجع إلى أهلنا. فخرجنا، وأقمنا هذه المدة، ثم جاء العسكر فسألت أحدهم عن أهلى ومنزلى، فقال لي: قد تزوجت امرأتك بعد خروجك ... فلما رجعت إلى البلد عدلت عن منزلي ونزلت سوق الدواب .... ولما علمت أم امرأتي بذلك جاءتنى ومعها موكب عظيم من نساء الجيران .... وسألتنى عن سبب ذلك فقلت وما أصنع بامرأة غبت عنها فتزوجت بعدي ... وسأشكو ذلك للملك. قالت أخطأ من قال هذا، ما تزوجت امرأتك وكيف تتزوج روميه بزوجين، إنما ذلك صديقها، لما غبت جاء ونزل عندها. فلما علمنا بقدومك حمل فراشه وانصرف، واستشهدت بأولئك النسوة والجيران، فشهدن أنه ليس بزوج وإنما هو صديقها، وأنه

ليس فى هذا بأس ولا عار عندهم ..... ويكفي أنه قد كفاني مؤنتها فى غيبتى .... قم عافاك الله إلى بيتك، فما ها هنا شيء يكره ولا ينكر، فقمت وحملت أثقالي وصرت إلى منزلي .... وزالت الغيرة .... ما يدخل أحد بلاد الروم إلا وقد طابت نفسه باتخاذ امرأته الأصدقاء، وزال عما كان عليه وانمحت الغيرة من قلبه، وزالت عنه الحمية وما كان عليه وهو مسلم " انظر: عبدالجبار الهمذاني: دلائل النبوة ،ج١ ص ١٧١-١٧٢ .

(٣٨) عبد الجبار الهمذاني: دلائل النبوة، ج١ ص ١٦٧-١٦٨.

(٣٩) عبد الجبار الهمذاني: دلائل النبوة، ج١ ص ١٦٨، ١٧٤، ١٧٥.

(٤٠) المسعودي: أخبار، ص ٧٦.

(٤١) Elcheikh-Saliba,Byzantium,P. ٨٠.

يضرب ابن الفراء مثلا على جور الروم بقوله: أن رسول ملك الروم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد طلبه فوجده نائما فى المسجد: فقال عدلت، فأمنت، فنمت، وجرنا، فخفنا، فحرسنا، انظر: ابن الفراء: الملوك، ص ٢١ .

ومن صور ظلم البيزنطيين ما رآه معاذ ابن جبل بنفسه عندما أرسله القائد أبو عبيدة بن الجراح (ت ١٨هـ/٦٣٩م) ليتفاوض معهم، ولكنه رفض الجلوس مع ملوكهم على الفرش والسجاد الفاخره قائلا لهم " ...استأثرتم بها على ضعفائكم وأهل ملتكم وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها ... فأنا اجلس ها هنا على الأرض وكلمونى أنتم بحاجتكم " انظر:

الأزدى : كتاب فتوح الشام ، صححه وليم ناسوليس ، كلكته، ١٨٥٤م ، ص ١٠٠-١٠١ .

أيضا كان علية القوم في المجتمع البيزنطي يفرون من العقاب على عكس البسطاء الذين كان الأمر يكلفهم فى بعض الأحيان بيع كل ممتلكاتهم، انظر:

Elcheikh-Saliba,Byzantium,P. ٨١.

ولمعرفة المزيد من صور ظلم البيزنطيين من وجهة نظر المسلمين، انظر الأزدى : فتوح الشام ، ص ١٥٥-١٥٨.

ورغم كل ذلك، غالبا ما أسهب الكتاب المسلمين فى ذكر فضائل الأباطرة البيزنطيين وعدلهم، فيقول ابن قتيبة الدينورى " ما ولى المسلمين أحد إلا ملك الروم مثله إن حازما وإن عاجزا، وكان ملكهم (يقصد الإمبراطور البيزنطي هرقل ٦١٠-٦٤١م) على عهد عمر (يقصد الخليفة عمر بن الخطاب١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) هو الذى دون لهم الدواوين، ودوخ لهم العدو وكان ملكهم على عهد معاوية يشبه معاوية(٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م) فى حزمه وحلمه، ابن قتيبة الدينورى : كتاب عيون الأخبار ،ط٢، ج٢ ،القاهرة ، ١٩٩٦م، ص ١٩٨.

(٤٢) ابن رسته : كتاب الأعلاق النفيسة ، وكتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩٣م ، ص ١٢٣، ١٢٥.

(٤٣) ابن الفراء: الملوك، ص١٥.

كان للإمبراطور البيزنطي هيبة كبيرة فى قلوب رعاياه، ذكر ذلك بن خرداذبه بقوله " والملك أكبر الروم في أنفسهم وأعزه عليهم " انظر: ابن خرداذبه : المسالك والممالك ،ويليه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، ليدن ، ١٨٨٩م ، ص١٠٩.

(٤٤) المسعودي: أخبار، ص ٧٧.

(٤٥) Elcheikh-Saliba,Byzantium,PP.١٠٢-١٠٣.

(٤٦) الطبري : تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ط ٢، د ـ ت ، ج ٧ ، ص ٢٩٨.

يقول الخليفة يزيد بن الوليد (يزيد الثالث) (ت ١٢٦هـ/٧٤٤م): أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدي وجد خاقان، انظر: الطبري: تاريخ ،ج ٧ ، ص ٢٩٨.وقد انعكست هذه المكانة التي حظي بها الأباطرة البيزنطيين على النصارى في الدولة الإسلامية فحظوا هم أيضا بالعطف والاحترام جراء ما حظي به أباطرتهم من مكانة عظيمة ، وهى مكانة تناقلها الخلف عن السلف ؛ ذلك أن= العرب قبل الإسلام كانوا يسافرون إلى بلاد الشام من أجل التجارة واعتادوا على إرسال السفراء إلى الدولة

البيزنطية، وكانوا يجلون الأباطرة البيزنطيين ، انظر : الجاحظ : المختار في الرد على النصارى ، مع دراسة تحليلية تقويمية ، تحقيق ودراسة الدكتور / محمد عبدا لله الشرقاوي ، ط ١ ،بيروت ، ١٩٩١م، ، ص١٨، ٦٠

(٤٧) المسعودي: التنبيه، ص ١٣٦ -١٣٧ ، ١٥٦ ، ١٧٦.

ولمزيد من المعلومات عن ملوك الروم المنتصرة، انظر: المسعودي: مروج ، ج ١ ،ص ٣١٧- ٣٢٧.

(٤٨) الأصفهاني: ملوك الأرض، ص ٥٥.

(٤٩) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية (د - ت -ن)،

http://www.٤shared.com/file/٢٠٢٩٦٥٣٣...٤٦٦/_____.html ص ٢٨٩.

اكتملت فى القرن الأول الهجري / السابع الميلادي عملية طبع الإمبراطورية البيزنطية بالطابع الهلينستى ، وأصبحت الإمبراطورية بشكل قاطع ذات طابع ووجهة هلينستية وليست لاتينية ، وظهرت فى عصر الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) لأول مرة تسمية إغريقية للإمبراطور حيث اتخذ لقب باسيليوس اليوناني ومعناه حاكم أو ملك بدلا من الألقاب الرومانية القديمة مثل إمبراطور وقيصر وأغسطس ، وأصبح عرفا جرى عليه الأباطرة البيزنطيون فيما تلا من تاريخهم ، انظر : عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، تقديم الأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران، الإسكندرية ، ٢٠٠٣م، ص ١٠٩-١١٠؛ جوزيف نسيم يوسف : الدولة ، ص ١٣٠.

(٥٠) رأفت عبد الحميد: قواعد الدبلوماسية، ص ١٠٥.

(٥١) البيروني: الآثار الباقية ص ٢٩؛ الأصفهاني: ملوك الأرض، ص ٥٨.

جدير بالذكر أن لقب قيصر ورد فى الحديث النبوي الشريف، قال صلى الله عليه وسلم " إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده، لتنفقن كنوزهما في سبيل الله "؛ حديث صحيح رواه البخاري، انظر: البخاري: صحيح البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠١هـ، الحديث رقم ٦٦٢٩.

كان أول من ملك الروم آل صوفر، وأولهم يوليوس ثم أغسطس، الذي كان أول من اتخذ لقب قيصر ومعناه شق عنه؛ ذلك أن أغسطس ماتت أمه وهي حبلى، فشق بطنها عنه وأخرج، انظر: - الخوارزمي: مفاتيح العلوم، راجعه وعلق حواشيه العلامة اللغوي الأستاذ محمد كمال الدين الأدهمي ط ١، القاهرة، ١٩٣٠م، ص ٧٢،٧١؛ البيروني: الآثار الباقية، ص ٢٩؛ الأصفهانى: ملوك الأرض، ص ٥٨.

(٥٢) الرشيد بن الزبير: كتاب الذخائر والتحف، حققه الدكتور محمد حميد الله، قدم له وراجعه الدكتور صلاح الدين المنجد سلسلة التراث العربي -١-، الكويت، ١٩٥٩م، ص ٥٦، ٥٨، ٨٢، ٨٤.

ورد لقب عظيم الروم في كتاب - النبي صلى الله عليه وسلم - إلى الإمبراطور هرقل، حينما خاطبه بقوله (من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك" انظر: الطبري: تاريخ، ج ٢، ص ٦٤٩.

(٥٣) المسعودي: التنبيه، ص ٧٧.

(٥٤) المقدسي: البدء والتاريخ، ج ٣، ص ٢١٠.

(٥٥) الرشيد بن الزبير: الذخائر، ص ٦٥.

(٥٦) المسعودي: التنبيه، ص١٩٠-١٩٣؛ القاضي الرشيد بن الزبير: الذخائر، ص ٦٠، ٧٤، ٨٦.

(٥٧) النعمان بن محمد: كتاب المجالس والمسارات، تحقيق، الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح، محمد العلاوى، بيروت، ١٩٩٦م، ص ١٦٦، ١٧٦؛ التنوخى : الفرج بعد الشدة ، طـ ٢ ، القاهرة ، ١٩٩٤م، ج ١، ص ١٤٥.

الطاغية هو أيضا الجبار والأحمق والمتكبر والصاعقة، ويشير هذا اللقب إلى الزهو الزائد وهو يعادل اللقب الأغريقى hubris ، ولقد أشار أسير مسلم لدى البيزنطيين إلى الإمبراطور البيزنطي بهذا اللقب ووصفه أنه أشد أعداء الإسلام والمسلمين ، انظر : الخوارزمي: العلوم، ص ٨١ حاشية رقم ١ ، انظر أيضا :

Elcheikh-Saliba, Byzantium,P.١٠٠.

(٥٨) المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٨٧٧م، ص ١٤٧؛ الطبري: تاريخ، ج ٨، ص٣٠٨.ورد لفظ كلب الروم في رسالة هارون الرشيد إلى الإمبراطور نقفور الأول Nicephous I(٨٠٢-٨١١م) عام ١٨٧هـ / ٨٠٢م ، انظر : الطبري : تاريخ ، ج ٨ ، ص٣٠٨ .

(٥٩) ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، ١٩٩٢م ، ص ١٧٨؛ البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢٨٩- ٢٩٠؛ الخوارزمي : العلوم ، ص٨١.

(٦٠)

ElcheikhSaliba,Byzantium,P.١٨١.

(٦١) الرشيد بن الزبير: الذخائر ، ص ١٩٨ .

(٦٢) Elcheikh-Saliba,Byzantium,P.١٨١.

(٦٣) ابن الفقيه: البلدان، ص ١٤١؛ البيهقي: النبوة، ج ١ ص ٣٨٧.

(٦٤) المسعودي: أخبار، ص٧٦؛ الرشيد بن الزبير: الذخائر، ص ١٩٩.

كان لا يلبس الفُرفير، وهو صنف من الحرير فيه لمع إلى السواد قليلا، والخف الأحمر إلا الملك ومن تعرض لذلك قتل، انظر: ابن خرداذبه : المسالك ، ص ١٠٩ .أما ابن الفراء فقد بالغ حينما وصف الروم بالبخل الشديد وساوي بين ما يرتديه الإمبراطور والعامة من الناس ، قائلا " أن الملك منهم - يقصد ملك الروم - وغيره يتساويان فى اللباس : إنما هو الطلي والديباج والمسده ، والرومي إذا تجمل قطع الثوب الذي من عمل زوجته وابنه وأخته ، يقيم على لابسه عشرين سنة إذا صانه من البذلة ... ولو ابتاع أحد ملوكهم قحفا خزفيا بمائة دينار يلحقه الصدع فلا يساوى درهما ... ولا يعرف الروم ملح الطرائف " ، انظر : ابن الفراء : الملوك ، ص ١٨ . ولمعرفة مزيد من الأمثلة عن بخل الروم، انظر ابن الفراء: رسل الملوك، www.roo٧e.com/book/view-٧٥١.html//:http، ص ١٨.

(٦٥) الرشيد بن الزبير: الذخائر، ص ١٩٨-١٩٩.

أوصى الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس ابنه رومانوس ألا يفرط مطلقا فى الملابس الإمبراطورية أو التيجان أو العباءات الرسمية أو يعطيها لأي من جيران

بيزنطة الشماليين سواء كانوا من الخزر أو الترك أو الروس أو غيرهم مقابل الخدمات التى يؤدنها لبيزنطة ، وان يعتذر لهم ويتذرع بأن هذه الملابس والتيجان لم تصنعها يد إنسان ، وإنما أرسلها الرب إلى قسطنطين العظيم بواسطة الملاك عندما أراد أن ينصبه إمبراطورا وأمره بوضعها فى الكنيسة المقدسة وأن يرتديها فقط فى الأعياد الدينية ، انظر: قسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية،= عرض وتحليل وتعليق د/ محمود سعيد عمران ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ٦٦ ، ولمزيد من التفاصيل ، انظر : قسطنطين السابع : إدارة ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٦٦) Elcheikh-Saliba,Byzantium,PP.٨٩-٩٠.

(٦٧) ابن رسته: الأعلاق، ص ١٢٣-١٢٤.

(٦٨) ابن رسته: الأعلاق، ص ١٢٤-١٢٥.

(٦٩) Constantine VII Porphyrogenitos,A., Le Livre des Ceremonies,trad et com par Vogt (Paris, ١٩٣٥) Vol.١, PP.٣-٦ ; Elcheikh - Saliba, Byzantium , P.١٧٥.

(٧٠) يذكر ابن رسته أن إحدى هذه الموائد كانت لسليمان ابن داود وكانت مرصعة بالدر والياقوت، والثانية لداود عليه السلام والثالثة لقارون والرابعة لقسطنطين الملك، انظر: ابن رسته: الأعلاق، ص ١٢٢-١٢٣.

كما يذكر المسعودى أن الإمبراطور كان لا يأكل إلا على أصوات الموسيقى والألحان والغناء، انظر: أخبار، ص ٧٦،٧٧.

(٧١) ابن رسته: الأعلاق، ص ١٢٢-١٢٣.

(٧٢) ابن الفراء: الملوك، ص ٢٢،٢٣.

لمعرفة هذه الأبيات وكيف أحزنت الخليفة وأبكته وجعلته يسعى لإطلاق سراح هؤلاء الأسرى، انظر: ابن الفراء: الملوك، ص ٢٣. تجدر الإشارة إلى أن أوضاع المسلمين كان لها أثرها الكبير على معاملة البيزنطيين لأسراهم ، ففي فجر الإسلام كان البيزنطيون يحافظون على الأسرى المسلمين لقوة المسلمين وليفادوا بهم ، والعكس صحيح فى فترات ضعف المسلمين ، حيث كانوا إذا سبوا المسلمين أساءوا معاملتهم وخصوا أعداد كبيرة من أطفالهم وكان يموت الكثيرين منهم ، ويلاحظ أن القاضي عبد

الجبار ضرب بسيف الدولة الحمداني مثلا على ضعف المسلمين ، رغم ما هو معروف عن سيف الدولة الحمدانى ، من انه كان شجاعا عالي الهمة ، وترجح حملة القاضى عبد الجبار عليه إلى أن سيف الدولة الحمداني كان على خلاف مع البويهيين الذين كانوا يحكمون مقر الخلافة العباسية والمشرق الإسلامي وكانت له معهم وقائع وحروب أيضا ، فالقاضي هنا ينتصر لحكومته وسلطانه ، انظر : عبدالجبار الهمذاني : دلائل النبوة ، ج١ ، ص ١٦٨ .

(٧٣) هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، انظر: قسطنطين السابع:إدارة ، ص ٨٣، حاشية رقم ٤ .

(٧٤) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٤٧.

(٧٥) قسطنطين السابع: إدارة، ص ٨٣، وانظر أيضا:

Elcheikh-Saliba,Byzantium,P.٢١٥.

ولمزيد من التفاصيل عن دخول مسلمة بن عبد الملك مدينة القسطنطينية بمفرده للتفاوض مع الإمبراطور ليو الثالث من أجل رفع الحصار والحفاظ على المسجد هناك، انظر: ابن أعثم الكوفى : الفتوح ، ج ٧ص ١٩٨ـ ٢٠١ .

(٧٦) التوخي: الفرج، ج ١، ١٤٥ ، ١٤٦ . ولمعرفة التفاصيل، انظر التنوخى:الفرج ،ج ١، ص ١٤٥ ، ١٤٦.

(٧٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٤٨.

(٧٨) ابن حوقل: صورة الأرض ، ص١٧٨.

(٧٩) في الوقت الذي يتفق فيه ابن الفقيه والبيهقى في عدم ذكر تاريخ معين لهذه السفارة ومن هو الخليفة الذي أرسل يدعو الإمبراطور البيزنطي للإسلام؟ يختلفان حول سفراء الخليفة فيذكر بن الفقيه أنهم كانوا عبادة بن الصامت وهشام ابن العاص ونعيم بن عبد الله ، أما البيهقى فيذكر أنه كان هشام ابن العاص ومعه رجل آخر من قريش دون أن يذكر اسمه ، لكنه أوضح أن صاحب الروم آنذاك هو هرقل ، وهذا مثال لما ورد من روايات مختلفة في المصادر الإسلامية حول الحادثة الواحدة ، وفى ظل قلة المعلومات والأدلة الدامغة يصعب على الباحث حسم الأمر ، لكن رواية ابن

الفقيه هنا تحتل المرتبة الأولى على اعتبار أنها الأقرب تاريخيا ، فالأرجح أن ابن الفقيه عاش في الربع الأخير من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري،أما البيهقى فقد توفى عام ٤٥٨ هـ ، انظر:

ابن الفقيه : البلدان ص ١٤٠ ؛ البيهقى : النبوة ج ١ص ٣٨٦.

(٨٠)ابن الفقيه : البلدان ص ١٤١؛ البيهقى :النبوة ، ج ١، ص٣٨٦-٣٨٨.

(٨١) Elcheikh-Saliba,Byzantium,P.٢٠٨.

(٨٢) ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٣٧- ١٣٨ .تجدر الإشارة إلى أن بعض الخلفاء المسلمين أيضا كانوا يسعون أيضا لإبهار وإدهاش السفراء البيزنطيين عند الالتقاء بهم فى دار الخلافة ، كما هو الحال عند استقبال الخليفة العباسى المقتدر بالله للسفير البيزنطى عام ٣٠٥هم ٩١٢م ، الذى أرسله الإمبراطور قسطنطين السابع إلى بغداد يلتمس المهادنة والفداء ، لمعرفة التفاصيل انظر : مسكويه : كتاب تجارب الأمم ،أعتنى بالنسخ والتصحيح هـ ف آمذروز ، القاهرة ، د ت ، ج ١ ص ٥٣، ٥٤ ؛ هلال الصابئ : رسوم دار الخلافة ، عنى بتحقيقه والتعليق عليه ميخائيل عواد ، ط ٢ ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦ م ، ص ١١-١٣.

(٨٣) Elcheikh-Saliba,Byzantium,P.١٧٩.

مما يذكر فى أمر سفارة الغزال هو محاولة البيزنطيين أن يسجد السفير الغزال أمام الإمبراطور ودون أن يشعر بذلك، لأنهم يعرفون المسلمين يرفضون هذا الأمر لتحريم الإسلام إياه ، ولذلك احتالوا على السفير بان ضيقوا مدخل البهو كى يضطر الغزال أن ينحنى عند دخوله على الإمبراطور ثيوفيل ، لكنه أدرك هذه الخدعة وجلس وأخذ يزحف حتى وصل إلى حضرة الإمبراطور ، انظر :Elcheikh-Saliba,Byzantium,P.١٨٤.(٨٤)

الطبري: تاريخ، ج ٩ ص ٢١٩-٢٢٠.

(٨٥) ابن أعثم الكوفى : كتاب الفتوح ، تحقيق على شيري ، بيروت ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ط ١ ، ج ٨ ص ٤٣١، ٤٣٢ .

يذكر اليعقوبى أن الإمبراطور تنازل وكتب مرة أخرى للمأمون مقدما اسم المأمون على اسمه قائلا " لعبد الله غاية الناس الشرف ملك العرب من توفيل ابن ميخائيل ملك الروم "، انظر اليعقوبي: تاريخ اليعقوبى ، ليدن ، ١٨٨٣م، ج٢، ص ٥٦٨.

(٨٦) لمعرفة القلم الرومي، انظر: ابن النديم: الفهرست في أخبار العلماء والمصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق رضا ـ حداد (د ـ ت ـ م)، ص ١٧ ـ ١٨

(٨٧) الرشيد بن الزبير: الذخائر، ص ٦٠،٦١،٦٤ .، ولمزيد من التفاصيل ،انظر : الرشيد بن الزبير : الذخائر ، ص ٦٠-٦١ .

(٨٨) Elcheikh-Saliba,Byzantium,PP.١٩٨-١٩٩.

انظر أيضا: فازيلييف : الروم ، ص ١٩.

(٨٩) ابن الفقيه: البلدان، ص ١٤١. وتؤكد المراسلات التي كانت تتم بين الأباطرة البيزنطيين والخلفاء المسلمين بعيدا عن السياسة، معرفة بعض أباطرة بيزنطة بالدين الإسلامي والقرآن الكريم. فقد كتب الإمبراطور هرقل إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (١٣ـ ٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) يستفسر منه عن شجرة النخيل ليتأكد من صحة وصف رسله لها ؛ لأنه لو صح وصفهم فهي إذن الشجرة التي نبتت واستظلت تحتها مريم وأشار إلى قوله تعالى (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً)(مريم ٢٥)،وأجابه الخليفة عمر" إن رسلك صدقوك ، وهى الشجرة التي نبتت على مريم ، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلها من دون الله" ، انظر : النويري : نهارية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق الدكتور يحي الشامي ، بيروت ـ د ت ، ج ١١، ص ٨١

(٩٠)التنوخي : الفرج ،ج ١، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٩١) الأصفهاني: الأغاني ، تصحيح احمد الشنقيطي ، القاهرة ، ١٩١٦م، ج ٣،ص ١٧٩ .البيتان هما :

ما أختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلك ، إلا لنقل السلطان عن ملك قد انقضى ملكه إلى ملك . انظر:الأصفهاني : الأغاني ، ج ٣ ص ١٧٩.

(٩٢)لمزيد من المعلومات عن نظام الثيمات انظر : هانئ البشير : الدولة البيزنطية (٦٤١-٧١١م)،القاهرة ، ٢٠٠١م، ص ٤٦ ، حاشية رقم ١ .

(٩٣)المسعودى : التنبيه ، ص١٧٩ .

تعتبر قائمة ابن خرداذبة هى أقدم قائمة عن الثيمات البيزنطية ، وقد ورد بها أيضا أنها كانت أربعة عشر عملا (أى بندا أو ثغرا) وقد نقلها ابن خرداذبة عن أبي مسلم الجرمي ، الذى كان من بين الأسرى المسلمين فى الدولة البيزنطية وتم فدائه عام ٨٤٥م ، حيث كان جنديا من جنود الثغور، ولذلك كان على معرفة بأرض الروم ، وكانت له مصنفات فى أخبار الروم وطرق بلادهم ومسالكها كما تطرق فى كتاباته ، التى يبدو أنها فقدت ، إلى البلغار والصقالبة والخزر .انظر : ابن خرداذبة : المسالك ، ص ١٠٥ ؛ المسعودى : التنبيه ، ص ١٩٠، ١٩١ . انظر أيضا : Elcheikh-Saliba,Byzantium,P.٢٠٢.

(٩٤) المسعودي: التنبيه ، ص ١٧٧- ١٨٠ .

لمزيد من المعلومات عن موقع هذه الثيمات والمناطق التي كانت تشملها، انظر:المسعودي:التنبيه ، ص١٧٧-١٨٠.

(٩٥) Elcheikh-Saliba,Byzantium,P.٢٠٢.

(٩٦) البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢٩

(٩٧) Elcheikh-Saliba,Byzantium ,PP.١١٢-١١٣.

(٩٨) المسعودي : مروج ، ج ١ ص ٣١٨-٣١٩ ، التنبيه ، ص ١٣٨ .

انتقد المقدسى من ينعت الإمبراطور قسطنطين الأول بالمظفر أى المنتصر ، لأن الكافر النجس لا يليق أن يقال له مظفّر ، انظر المقدسي : البدء والتاريخ، ج ٣ ، ص ٢١٠.

(٩٩) المسعودى : التنبيه ، ص ١٣٧- ١٣٨ .

(١٠٠) أختلف المؤرخون ولا يزالون ، حول مسيحية قسطنطين ، فمنهم من رفعه مكانا عليا فجعله أحد حواري المسيح ، وأولئك هم مؤرخو الكنيسة ، وآخرون يجعلونه أول إمبراطور مسيحي ، جعل المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية ، وبعضهم

يجعله وثنيا مدافعا عن عقيدة الرومان الأسلاف ، وفريق رابع يجعله إمبراطورا بلا دين ، انظر : رأفت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية ، ص ١٢٧، حاشية رقم ٦٣ .

أيضا ما يزال هناك جدل بين المؤرخين حول دوافعه لاعتناق المسيحية ، ويمكن جمع كل وجهات النظر حول هذا الأمر في ثلاث نقاط:

١ـ لم يكن قسطنطين مسيحيا مخلصا وإنما تظاهر باعتناق المسيحية لأهداف سياسية .

٢ـ كان اعتناقه المسيحية ضمن مشروعه للتوفيق بين العقائد لدعم سلطته .

٣ـ كان مخلصا فى تحوله للنصرانية وبالتالي كان مصرا على سياسته العقائدية .

انظر : Elcheikh-Saliba,Byzantium ,P.١١٤,note .no.٢٤٣.

(١٠١) عبد الجبار الهمذاني : دلائل النبوة ، ج ١، ص ١٦١ـ ١٦٢.

(١٠٢) Elcheikh-Saliba,Byzantium ,PP.١١٦-١١٧.

(١٠٣) المسعودى : التنبيه ، ص ١٤٢.

(١٠٤) الاصفهاني : ملوك الأرض ، ص ٥٩

(١٠٥) Elcheikh-Saliba,Byzantium,P.١١٦.

(١٠٦) عبد الجبار الهمذاني : دلائل النبوة ، ج ١، ص ١٦٣.

(١٠٧) المسعودى : التنبيه ، ص ٩٩،١٣٧ ؛ عبد الجبار الهمذاني: دلائل النبوة، ج ١، ١٦٣-١٦٤.

(١٠٨) المذهب الملكائي أو الملكاني نسبة على الملك، اى الإمبرطور البيزنطي، انظر: جوزيف نسيم يوسف : الدولة ، ص ٩٢.

(١٠٩) اليعقوبية نسبة إلى مار يعقوب ، انظر : الخوارزمي : العلوم ، ص ٢٣.

المذهب اليعقوبي او التوحيدى هو المذهب المونو فيسى ، انظر : جوزيف نسيم يوسف : الدولة ، ص ٩٢ .

(١١٠) الخوارزمي : العلوم ، ص ٢٣ ؛ البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢٨٨.

(١١١) المسعودى : أخبار، ص ٧٦.

(١١٢) المسعودي : أخبار ، ص ٧٦ ؛ البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢٨٩؛ الخوارزمي : العلوم ، ص٨١.

(١١٣) البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢٨٩؛ الخوارزمي : العلوم ، ص ٨٢ .

(١١٤) المسعودي: التنبيه ، ص ١٧٢-١٧٣.

(١١٥) الطبرى : تاريخ ، ج ٢، ص ٦٥٠.

(١١٦) Theophanes, The Chronicle,P.٤٣٠.

انظر أيضا : البطريرك نقفور : المختصر ،ص ٦٥

(١١٧) البطريرك

.

نقفور : المختصر ، ص ٦٥ .

(١١٨)البطريرك نقفور : المختصر ، ص ٦-٨ .

(١١٩) البطريرك نقفور : المختصر ، ص ٥ .

(١٢٠)المسعودي: التنبيه ، ص ٦-٧ .

الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية وهى فيلاسوفيا وتفسيرها محبة الحكمة فلما أعربت قيل فيلسوف ثم اشتقت الفلسفة منه، ومعنى الفلسفة علم حقائق الأشياء والعمل بماهو أصلح وتنقسم قسمين ، أحدهما الجزء النظرى والآخر الجزء العملى ، انظر: الخوارزمي : العلوم ، ص٨٣ . ولمزيد من المعلومات ، انظر الخوارزمي : العلوم ، ص ٨٣-٨٧.

(١٢١)الخوارزمي : العلوم ، ص ٧١ ؛ المسعودي: التنبيه ، ص ٧ .

(١٢٢)المسعودي: التنبيه ، ص ٧، ١٨٢.

(١٢٣)المسعودي: التنبيه ، ص ٧.

(١٢٤)صاعد الأندلسي : الأمم ، ص ٣٥-٣٦.

حمل الجاحظ على الروم حملة شديدة ، حينما ذكر أن العلوم والحكمة أصولها يونانية" ولو علمت العوام أن النصارى والروم ليست لهم حكمة ولا بيان ولا بعد رؤية إلا حكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون - السندس - لأخرجتهم من حدود الأدباء ولمحتهم من ديوان الفلاسفة الحكماء ، لأن كتاب المنطق والكون والفساد وكتاب العلوى وغير ذلك لأرسطوطاليس وليس برومي ولا نصراني ، وكتاب المجسطي لبطليموس وليس برومي ولا نصراني .... ،وأفلاطون وفلان وفلان

...أولئك علماء وهؤلاء صناع " وهى فكرة جاحظية معروفة لا يفتأ يكررها على صورة أو أخرى في كثير من رسائله ، انظر : الجاحظ : المختار ، حاشية ٢ ص ١٩.

(١٢٥)المسعودى : مروج ،ج ١، ص٣٢١ ؛ ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٠٢ ؛ عبد الجبار الهمذاني :دلائل النبوة، ج ١، ص ١٦٣.

(١٢٦) Elcheikh-Saliba,N.,Byzantium ,P.٥٧.

(١٢٧) صاعد الأندلسى : الأمم ، ص ٤٨ .

الشئ ذاته أكدته صلة ثيوفانيس فى مجال الرياضيات وهو أن الخليفة المأمون دخل فى مفاوضات متكررة مع الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل ، كى يرى ولو لوقت محدود العالم البيزنطي والمهندس الفلكى المسمي ليون كى يستفيد من علمه الواسع فى مجال الرياضيات ، انظر :

Theophanes Continuatus , Ioanne s Cameniata , Symeon Magister , Georgius Monchus Continuatus , CSHB ed Niebuhrii,F (Bonn,١٨٣٨),PP.١٨٥-١٩٦.

(١٢٨) صاعد الأندلسى : الأمم ، ص ٣٦. ولمعرفة المزيد من الأطباء ، انظر : صاعد الأندلسى : الأمم ، ص ٣٦-٣٧.

(١٢٩) المسعودي : أخبار، ص٧٧ .

(١٣٠)التوحيدي : كتاب الأمتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح عربيه أحمد أمين وأحمد الزين (د ـ ن، ت) ج ١، ص٧١.

(١٣١)ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٣٧- ١٣٨ .

(١٣٢)ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٤٣-١٤٤.

(١٣٣)ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٣٦.

(١٣٤) الخوارزمي : العلوم ، ص ١٤٥، حاشية رقم ١، ١٤٩ .

الكيمياء كلمة يونانية معناها اختلاط وامتزاج ، ويشكك البعض في إمكانية تحويل المعادن إلى ذهب وفضة ، ومن أبرزهم ابن برهان النحوي المتوفى سنة ٤٥٦هـ والذي يرى أن علم الكيمياء لو كان حقا لما احتاجت الحكومات إلى أخذ الخراج

(الضرائب) من الرعية ، انظر : الخوارزمي : العلوم ، ص ١٤٥- ١٤٦ حاشية رقم ١ .

(١٣٥)ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٣٩.

كانت التجربة التي أجراها الإمبراطور البيزنطي عبارة عن رطل من الرصاص أذيب ووضع عليه ما يحمل ظفر الإبهام من دواء ابيض فتحول إلى فضة بيضاء ، ورطل من النحاس أذيب ووضع عليه ما يحمل ظفر الإبهام من دواء أحمر فتحول إلى ذهب أحمر، انظر : ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٣٩.

(١٣٦) Elcheikh-Saliba,Byzantium ,P.١١٠.

(١٣٧)المسعودى : التنبيه ، ص ٧٧.

(١٣٨)ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٣٦-١٣٧ .

(١٣٩) Elcheikh-Saliba,Byzantium ,pp.٦١-٦٢.

أحرز الفنان البيزنطي الفخامة المرغوبة بوسائله وما توافر له من مواد ، وأخذ المصور البيزنطي يعمل على بلوغ القدرة على التصرف فى الفسيفساء (السليزلى) ، بدلا من أن يتم بالأصباغ والألوان فى عمل اللوحات أو الصور الجصية على الجدران ،كما أحرز البيزنطيون أيضا قصب التفوق فى كل ضرب من ضروب الفنون الزخرفية انظر: رنسمان : الحضارة ، ص ٣١٣ ، ٣٣٧ . ولمزيد من التفاصيل عن الفن البيزنطي ، انظر : رنسمان: الحضارة، ص ٣٠٩-٣٣٩ .

(١٤٠)المسعودي : أخبار ، ص ٧٧ ؛ ابن الفراء : الملوك ، ص ١٧.

(١٤١)ابن الفراء : الملوك ، ص ١٨ .

(١٤٢)الثعالبي : كتاب لطائف المعارف ، بريل ، ١٨٦٧م، ص ١٣٢ .

يذكر الجاحظ أن الروم " كانوا صناع مهرة في كل الفنون فى النجارة والنحت والزخرفة ونسج القماش الحريري المطرز " البزيون" والمطرزات المقصبة البيزنطية كانت عالية القيمة في كل مكان " انظر:الجاحظ:المختار، ص٦٢.

(١٤٣)المقدسى : البدء والتاريخ ، ج ٤، ص ٦٨.

(١٤٤)ابن الفراء : الملوك ، ص ١٧ .

(١٤٥)ابن الفقيه : البلدان ، ص ١٤٨

(١٤٦)ابن الفراء :الملوك ، ص ١٨.

(١٤٧)ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٨٣ .

(١٤٨)المسعودي : التنبيه ، ص٧.

(١٤٩)بن حوقل : صورة ، ص ١٨٢.

(١٥٠)القاضى الرشيد بن الزبير : الذخائر ، ص ٢٨ .